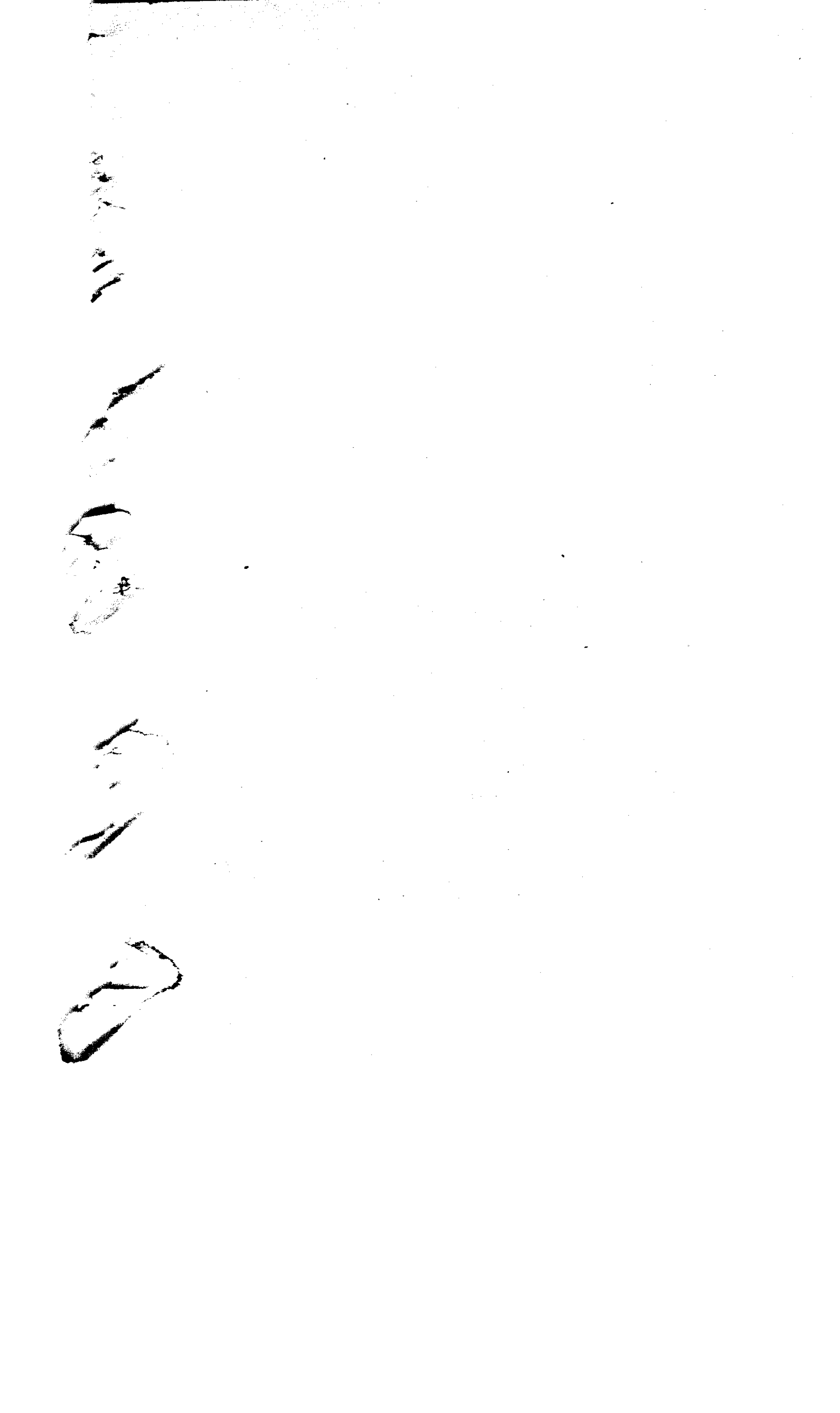
الإيجاز والبيان
في
علوم القرآن



المنهج المقرر على السنة الأولى من قسم التخصص بمعاهد القراءات بالأزهر

الإيجاز والبيان في علوم القرآن

تأليف

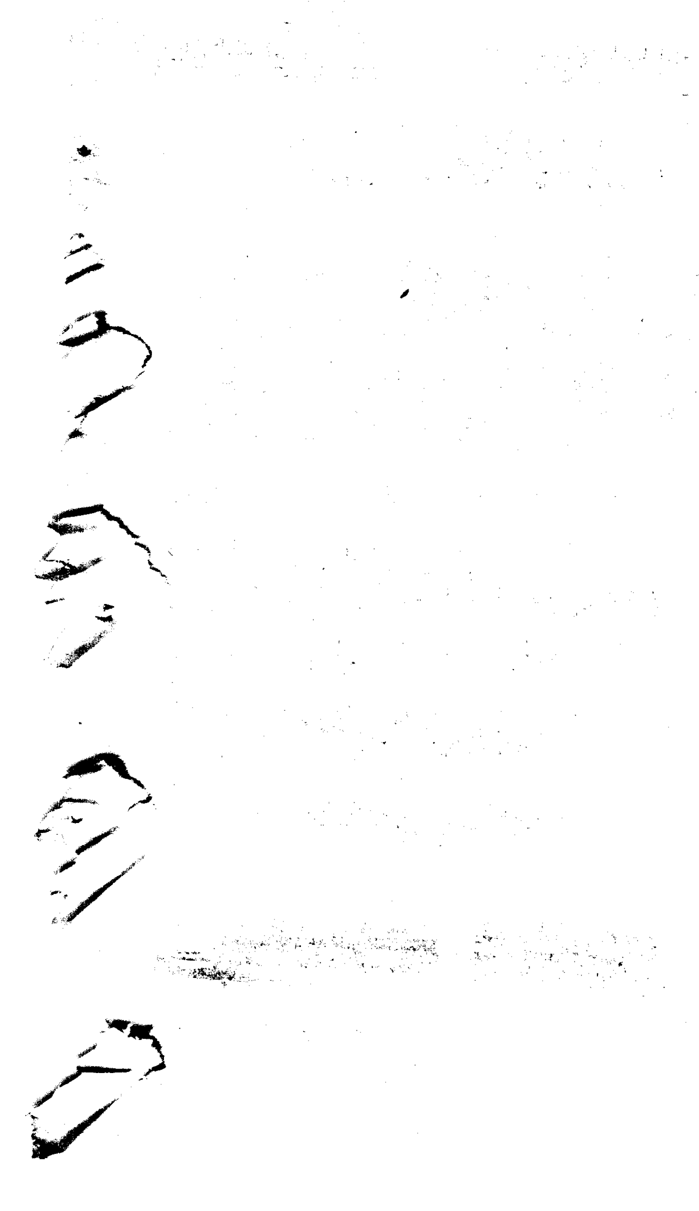
محمد الصادق قمحاوي

المفتش العام بالأزهر الشريف

وعضو لجنة مراجعة المصاحف



مكتبة عالم الفكر
ميدان سيدنا الحسين ـ القاهرة
(ت ٩٢٣٦٦٠٩ ـ ٤٠٢٠٤)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله منزل القرآن وملهم البيان ، فضل ديننا على سائر الأديان ، وأكرمنا برسالة خير الأنام ، عبده ورسوله وصفيه وخليله ،وخيرته من خلقه محمد بن عبد الله الذى محا الله به الرجس وعبادة الأصنام وأكرمه بمعجزة القرآن ، المستمرة على تعاقب الدهور والأزمان والتى تحدى بها جميع الخلق من إنس وجان ، وأفحم بها جميع أهل الزيغ والطغيان ، وجعله ربيعاً لقلوب أهل البصائر والشكر والعرفان ، فلا يخلق على كثرة الرد وتغاير الأحيان ، وقد يسره للذكر حتى استظهره الشيب والولدان ،وضمن لنا حفظه من تطرق التغيير والحدثان بوعده الحق وقوله الصدق ، ووعده عز وجل لا يتخلف فقال عز من قائل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقد وفق الله للعناية بعلوم القرآن من اصطفاهم من أهل الحذق والاتقان فجمعوا فيها من كل فن ما ينشرح له صدر أهل النعمة والإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، شهادة محصلة للرحمة والغفرآن ، منقذة لصاحبها من هول الجحيم والنيران . موصلة له إلى سكنى أهل النعيم فى أعلى الجنان .

أما بعد ، فقد منّ الله عز وجل على الأمة الإسلامية بعد أن تكامل نضج الخليقة والإنسانية وأراد الله فى علمه الأزلى لرسالة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم أن تشرق على الوجود فبعثه على فترة وانقطاع من الرسل ليكمل عقد إخوانه من الرسل السابقين بشريعته العامة وكتابه الخالد ومعجزته العظمى القرآن الكريم ، ففى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون منه ، ويقولون لولا هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) متفق عليه .

فالقرآن الكريم رسالة الله إلى الإنسانية كافة وقد تواترت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على ذلك : قال تعالى ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾ وقال ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾، وقال ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ .

وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة «في الصحيحين من حديث : وأعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي» وغير ذلك كثير وكثير من القرآن والسنة .

فلا غرو من أن يأتي القرآن الكريم وافيا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية قال الله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١٣ — الشورى) .

وقد تحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بالقرآن مع أنه نزل بلسانهم وهم أرباب الفصاحة والبيان ، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله . أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله ، فثبت له هذا الإعجاز ، وبإعجازه ثبتت الرسالة المحمدية العامة .

كتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل فمن أوصاف جبريل الذي نزل به ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ (١٩٣ الشعراء). ومن أوصافه وأوصاف المنزل عليه ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على

الغيب بضنين ﴾ من (١٩ — ٢٤ التكوير) وكذا قوله ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين ﴾ من (٧٧ — ٧٩ الواقعة).

ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص ، وأقوام مخصوصين وجاء القرآن الكريم ، برسالته العامة لجميع الخلق إنس وجن عجم وعرب شرق وغرب .

فتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به ﴾ (٢٩ — ٣١ الأحقاف) هذا والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية فى شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والبدنية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية علاجا حكيما ، لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ويضع لكل مشكلة بلسمها الشافى فى أسس عامة ترسم الإنسانية

خطاها ، وتبنى عليها فى كل عصر ما يلائمها . فا كتسب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان فهو دين البقاء والخلود وما أروع ما قاله داعية الإسلام فى القرن الرابع عشر الإمام الشهيد حسن البنا فى رسالة التعاليم (الإسلام نظام شامل . يتناول مظاهر الحياة جميعاً . فهو دولة ووطن وحكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، ورحمة وعدالة . وهو ثقافة وقانون . وعلم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، وكسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ° وجيش وفكرة . كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة سواء بسواء) .

والإنسانية المعذبة اليوم فى ضميرها . المضطربة فى أنظمتها المتداعية فى أخلاقها . لا عاصم لها من الهاوية التى تتردى فيها إلا القرآن قال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ من (١٢٣ — ١٢٤ طه) .

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط هذه النظم وتلك المبادىء السامية ، حرىّ بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف ، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطىء السلام والأمان ، وكما كانت لهم الدولة بالقرآن

فى الماضى . فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به فى الحاضر والمستقبل .

والله أسأل أن يوفقنا للعمل بالقرآن واتباع هدى سيد الأنام إنه سميع الدعاء مجيب النداء .

محمد الصادق قمحاوى

المفتش بالأزهر الشريف

وبعد فنأخذ فى المقصود فنقول وبالله التوفيق .

التعريف العلمى للقرآن

فى اللغة وفى الإصلاح

يقولون قرأ : يأتى بمعنى الجمع والضم والقراءة : ضم الحروف والـكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل ، والقرآن فى الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآنا .

قال تعالى ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ (١٧ ، ١٨ القيامة) . أى قراءته ، فهو مصـدر على وزن « فعلان » بالضم كالغفران والشكران ، تقول : قرأته قرءا وقراءة وقرآنا ، بمعنى واحد سمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر ، وقد خص القرآن بالـكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فصار له كالعلم الشخصى .

ويطلق بالاشتراك اللفظى على مجموع القرآن ، وعلى كل آية من آياته ، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن قال تعالى ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ (٢٠١ الأعراف).

وذكر بعض العلماء أن تسمية هذا الـكتاب قرآنا من بين

كتب الله تعالى لكونه جامعا لثمرة كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم . كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله :

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ﴾ (٨٩ النحل)

وقوله ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (٣٨ الأنعام)

وذهب بعض العلماء إلى أن لفظ القرآن غير مهموز الأصل فى الاشتقاق ، إما لأنه وضع علما مرتجلا على الكلام المنزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم وليس مشتقا من قرأ ، وإما لأنه من قرن الشىء بالشىء إذا ضمه إليه ، أو من القرائن لأن آياته يشبه بعضها بعضا فالنون أصلية — وهذا رأى مرجوح ، والصواب الأول .

والقرآن الكريم يتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص . بحيث يكون تعريفه حدا حقيقيا والحد الحقيقى ، هو استحضاره معهودا فى الذهن ، أو مشاهدا بالحس ، كأن تشير إليه مكتوبا فى الصحف ، أو مقروءا باللسان فتقول هو ما بين هاتين الدفتين ، أو تقول : هو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ... إلى قوله : من الجنة والناس﴾ هذا

ويذكر العلماء له تعريفا اصطلاحيا يقرب معناه ويميزه عن غيره ، فيعرفونه بأنه :

كلام الله القديم الأزلى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى ، المتعبد بتلاوته « فالـكلام » جنس فى التعريف ، يشمل كل كلام ، وإضافته إلى « الله » يخرج كلام غيره من الانس والجن والملائـكة و « المنزل » يخرج كلام الله الذى استأثر به سبحانه ﴿ قل لو كان البحر مدادا لـكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ (١٠٩ الـكهف) ، ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ (٢٧ لقمان) وتقييد المنزل بكونه «على محمد صلى الله عليه وسلم يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله ، كالتوراة والأنجيل وغيرهما .

« المتعبد بتلاوته » يخرج قراءات الآحاد ، والأحاديث القدسية ـ إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها ـ لأن المتعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته فى الصلاة وغيرها على وجه العبادة ، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك . « المنقول إلينا نقلا متواترا » يخرج القراءات الشاذة صحيحة السند .

أسماء القرآن وأوصافه :

وقد سماه الله بأسماء كثيرة :

منها « القرآن » ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ (٩ الإسراء) .

و « الكتاب » ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ (١٠ الأنبياء) .

و « الفرقان » ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (١ الفرقان) .

و « الذكر » ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٩ الحجر).

و « التنزيل » ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ ـ الشعراء ﴾ .

إلى غير ذلك مما ورد فى القرآن . وسيأتى بيان لذلك أكثر إن شاء الله .

وقد غلب من أسمائه : القرآن والكتاب ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز :

روعى فى تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن ، كما روعى فى تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية

الشيء بالمعنى الواقع عليه .

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ماهو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها فى نفوس الأمة المحمدية إقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظا فى حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقد حقق الله وعده فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند .

وبين سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سائراً مسيرها ،

ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه - وهو الحكيم العليم - أما وصفه

فقد وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك

منها أنه « نور » قال تعالى ﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾ (١٧٤ النساء) .

و « هدى » و « شفاء » و « رحمة » و «موعظة» قال﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٥٧ يونس) .

و « مبارك » ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ﴾ (٩٢ الأنعام) .

و « مبين » ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (١٥ المائدة) .

و « بشرى » ﴿ مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ (٥٧ البقرة) .

و « عزيز » ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ﴾ (٤١ فصلت) .

و « مجيد » ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ (٢١ البروج) .

و « بشير » و « نذير » ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً ﴾ (٣ و ٤ فصلت) .

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معانى القرآن

الفرق بين القرآن

والحديث القدسى والحديث النبوى

سبق تعريف القرآن ، ولكى نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسي والحديث النبوى فلنقدم التعريفين الآتيين .

فالحديث النبوى :

أولا الحديث فى اللغة : ضد القديم ، ويطلق ويراد به كل كلام يتحدث به وينقل ويبلغ الانسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه ، وبهذا المعنى يسمى القرآن حديثاً قال تعالى ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ (٨٧ النساء) وسمى ما يحدث به الإنسان فى نومه حديثا قال تعالى ﴿ وعلمتنى من تأويل الأحاديث ﴾ (١٠١ يوسف) .

والحديث فى الاصطلاح : ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة .

فالقول : كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء ما نوى » — من حديث طويل رواه البخارى

ومسلم عن عمر بن الخطاب .

والفعل . كالذى ثبت عن تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال « صلوا كما رأيتمونى أصلى » ورواه البخارى وما ثبت من كيفية حجه ، بقوله : « خذوا عنى مناسككم » أخرجه مسلم وأحمد والنسائى .

والإقرار كأن يقر أمرا علمه عن أحد الصحابه من قول أو فعل سواء أكان ذلك فى حضرته صلى الله عليه وسلم أم فى غيبته ثم بلغه ، ومن أمثلته .

« أكل الضب على مائدته صلى الله عليه وسلم » وما روى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته فيختم بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والصلام .

فقال : سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أخبروه أن الله يحبه ، رواه البخارى ومسلم .

والصفة : كما روى : « من أنه صلى الله عليه وسلم ، كان

دائم البشر ، سهل الخلق . لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ، ولا فحّاش، ولا عيّاب .

وأما الحديث القدسي :

فقد عرفنا معنى الحديث لغة ، والقدسي : نسبة إلى القدس وهي نسبة تدل على التعظيم لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة ، فالتقديس : تنزيه الله تعالى والتقديس : التطهير وتقدس : تطهر . قال تعالى على لسان ملائكته : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (٣١ البقرة) أي نطهر أنفسنا لك .

والحديث القدسي في الاصطلاح : هو ما يضيفه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى : أي أن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه على أنه من كلام الله ، فالرسول راو لكلام الله بلفظ من عنده وإذا رواه أحد عن رسول الله مسنداً إلى الله عز وجل فيقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل ، ومثال ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل ﴿ يد الله ملأى لا يغضها نفقة سحاء الليل والنهار ﴾ أخرجه البخاري ، وقد يكون بلفظ قال رسول الله ومثاله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى ﴿ أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ﴾ أخرجه البخارى ومسلم .

وأما الفرق بين القرآن والحديث القدسى :

فاعلم أن هناك فروقا كثيرة بين القرآن والحديث القدسى ولكن سنذكر منها الأهم .

الأول: أن القرآن كلام الله الموحى إلى الرسول بلفظه وتحدى به العرب فعجزوا عن أن يأتوا بمثله كما فى قوله :﴿ قل لأن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٨٨ من سورة الإسراء) أو ﴿ بعشر سور مثله مفتريات ﴾ (١٣ سورة هود) أو بسورة من مثله (٢٣ من سورة البقرة) فلا يزال التحدى به قائماً فهو معجزة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والحديث القدسى وإن كان من كلام الله إلا أنه لم يقع به تحد ولا إعجاز .

الثانى : أن القرآن الكريم لا ينسب إلا إلى الله تعالى فيقال قال الله تعالى والحديث القدسى كما سبق قد يروى مضافا إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال : قال الله تعالى :

أو يقول الله تعالى ، وقد يروى مضافا إلى الرسول ﷺ وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه ﷺ هو المخبر عن الله تعالى ، فيقال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل .

الثالث : أن القرآن الكريم جميعه منقول إلينا بالتواتر ، فهو قطعي الثبوت ، والأحاديث القدسية أكثر أخبار آحاد . فهى ظنية الثبوت ، وقد يكون الحديث القدسى صحيحاً ، وقد يكون حسنا ، وقد يكون ضعيفا .

الرابع : أن القرآن الكريم من عند الله لفظا ومعنى ، فهو وحى باللفظ والمعنى . والحديث القدسى ، معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصحيح ، فهو وحى بالمعنى دون اللفظ ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين .

الخامس : أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته ، فهو الذى تتعين القراءة به فى الصلاة : قال تعالى ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ (٢٠ المزمل) .

وقراءته عبادة يثيب الله عليها بما جاء فى الحديث : « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم

حرف » رواه الترمذى عن ابن مسعود وقال حديث حسن صحيح . والحديث القدسى لا يجزئ فى الصلاة ، ويثيب الله على قراءته ثوابا عاما ، ولا يصدق فيه الثواب الذى ورد ذكره فى الحديث على قراءة القرآن ، بكل حرف عشر حسنات .

أما الفرق بين الحديث القدسى والحديث النبوى :

فالحديث النبوي قسمان :

« قسم توقيفى » وهو الذى تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم مضمونه من الوحى فبينه للناس بكلامه ، وهذا القسم وإن كان مضمونه منسوبا إلى الله فإنه – من حيث هو كلام – حرىّ بأن ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الكلام إنما ينسب إلى قائله وإن كان ما فيه من المعنى قد تلقاه عن غيره .

و « قسم غير توقيفى » وهو الذي استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن ، لأنه مبيّن له ، أو استنبطه بالتأمل والاجتهاد . وهذا القسم الاستنباطى الاجتهادى يقره الوحى إذا كان صوابا ، وإذا وقع فيه خطأ جزئى نزل الوحى بما فيه الصواب : ومثاله ما كان فى أسرى بدر ، فإن رسول ﷺ أخذ برأى أبى بكر وقبل منهم الفداء ، فنزل القرآن الكريم معاتبا له : ﴿ ما كان

لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾ (٦٧ الأنفال) ، وليس هذا القسم كلام الله قطعاً .

ويتبين من ذلك : أن الأحاديث النبوية بقسميها : التوقيفى ، والتوقيفى الاجتهادى الذى أقره الوحى ، يمكن أن يقال فيها إن مردها جميعاً بجملتها إلى الوحى ، وهذا معنى قوله تعالى فى رسولنا صلى الله عليه وسلم ﴿وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى﴾ (٣ - ٤ النجم) ، والحديث القدسى معناه من عند الله عز وجل ، يلقى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بكيفية من كيفيات الوحى لا على التعيين . أما ألفاظه فمن عند الرسول صلى الله عليه وسلم على الراجح ، ونسبته إلى الله تعالى نسبة لمضمونه لا نسبة لألفاظه ، ولو كان لفظه من عند الله لما كان هناك فرق بينه وبين القرآن ، ولوقع التحدى بأسلوبه والتعبد بتلاوته والله أعلم .

الوحى وتعريفه :

الوحى هو أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر ، ويكون الوحى على أنواع شتى ، فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه ، كما كلم الله موسى تكليما ، ومنه ما يكون

إلهاماً يقذفه الله فى قلب من اصطفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ، ولا يجد فيه شكا ، ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجيء فى تحققه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح فى تبلجه وسطوعه ، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ، وذلك النوع هو أكثر الأنواع ، ووحى القرآن كله من هذا القبيل . قال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ ويهبط هذا الوحى على أساليب شتى . فتارة فى الأرض وكان يقول : أنا جبريل وأنت رسول هذه الأمة .

وقد يظهر للرسول صلى الله عليه وسلم فى صورته الحقيقية الملكية ، فقد رآه على هذه الصورة مرتين فى أول نزوله باقرأ باسم ربك الذى خلق ، وذلك فى الأرض ، ومرة فى السماء ليلة المعراج ، وتارة يظهر فى صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه ، وتارة يهبط على الرسول خفية لا يرى ، ولكن يظهر أثره بالتغير والانفعال على صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء ، وما هى فى شىء من الغشية والإغماء

إن هى إلا استغراق فى لقاء الملك الروحانى وانخلاع عن حالته البشرية العادية فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلا شديداً قد يتصبب منه الجبين عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل فى إذن سامعيه وذلك أشد أنواعه وربما يسمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوى النحل لكن لا يفهمون كلاماً ولا يفقهون حديثاً .

أما هو ﷺ فيسمع ويعى مايوحى إليه ويعلم علم اليقين أن هذا هو وحى الله دون لبس ولا خفاء ولا ارتياب ، فإذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى إليه حاضراً فى ذاكرته منقوشاً فى حافظته كأنما كتب فى قلبه كتابة ، والأدلة على ذلك عقلية ونقلية .

فالنقلية ما رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها :

أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى

وقد وعيت عنه ماقال وأحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فأعى مايقول .

(قالت عائشة ، ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

إمكان الوحى ووقوعه :

ازدهرت الحياة العلمية وبددت أشعتها كل ريبة كانت تساور الناس إلى عهد قريب فيما وراء المادة من روح ، وآمن العلم المادى الذى وضع جل الكائنات تحت التجربة والاختبار بأن هناك عالما غيبيا وراء هذا العالم المشاهد ، وأن عالم الغيب أدق وأعمق من عالم الشهادة ، وأكثر المخترعات الحديثة التى أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفى الذى عجز العلم عن إدراك كنهه وإن لاحظ آثاره ومظاهره . وقرب هذا بعد الشقة بين التنكر للأديان والإيمان بها مصداقا لقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ آية ٥٣ ـ سورة فصلت وقوله ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ آية ٨٥ ـ سورة الإسراء .

فالبحوث النفسية الروحية لها فى مضمار العلم الآن مكانتها وبَيِّنَاتها ويقربها إلى الأفهام تفاوت الناس فى مداركهم وميولهم

وغرائزهم ، فمن العقول ، العبقرى الفذ الذى يبتكر كل جديد ، ومنها الغبى الذى يستعصى عليه إدراك بديهى الأمور ، وبين المنزلتين درجات . والنفوس كذلك ، منها الصافى المشرق ، والخبيث المعتم .

وجسم الإنسان يطوى وراءه روحا هى سر حياته ، وإذا كان الجسم تبلى ذراته . وتفنى أنسجته وخلاياه مالم يتناول قسطه من الغذاء فجدير بالروح أن يكون لها غذاء يمدها بالطاقة الروحية كى تحتفظ بمقوماتها وقيمها .

وليس ببعيد على الله تعالى أن يختار من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة مايعدها للفيض الألهى ، والوحى السماوى ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ليلقى إليها برسالاته التى تسد حاجة البشر فى رقى وجدانه ، وسمو أخلاقه ، واستقامة نظامه ، وهؤلاء هم رسله وأنبياؤه .

ولا غرابة فى أن يكون هذا الاتصال بالوحى السماوى .

فالناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسى ، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يحدث أثرا يقرب إلى الأفهام ظاهرة الوحى - حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة أن

يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه فينام نوماً عميقاً ، ويكون رهن إشارته ، ويلقنه مايريد فيجرى على قلبه ولسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة .

ثم هناك دليل آخر من الذى يسمع الناس الأحاديث المسجلة التى تحملها اليــوم موجات الأثير ، عابرة الوهاد والنجاد ، والسهول والبحار ، دون رؤية ذويها ، بعد وفاتهم .

وأصبح الرجلان يتخاطبان فى الهاتف ، أحدهما فى أقصى المشرق ، والآخر فى أقصى المغرب ، وقد يتراءيان مع هذا التخاطب ولا يسمع الجالسون بجانبهما شيئا سوى أزيز كدوى النحل الذى فى صفة الوحى .

ومن منا ليس له حديث نفسى فى يقظته أو منامه يدور فى خلده دون أن يرى متكلما أمامه ؟

هذه وغيرها أمثلة تفسر لعقولنا حقيقة الوحى . وتدل دلالة قاطعة على إمكانه .

وقد شاهد الوحي معاصيروه، ونقل بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة ولمست الإنسانية أثره فى حضارة أمته ، وقوة أتباعه ، وعزتهم ما استمسكوا به ،

وانهيار كيانهم وخذلانهم مافرطوا فى جنبه ، مما لايدع مجالا للشك فى إمكان الوحى وثبوته ، وضرورة العودة إلى الاهتداء به إطفاء للظمأ النفسى بمثله العليا وقيمه الروحية .

ولم يكن رسولنا صلى الله عليه وسلم أول رسول أوحى إليه ، بل أوحى الله تعالى إلى الرسل قبله بمثل ما أوحى إليه قال تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ (١٦٣ ، ١٦٤ النساء) .

فليس هناك فى نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم ما يدعو إلى العجب ، ولذا أنكر الله على العقلاء هذا فى قوله :

﴿أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ (٢ يونس) .

معنى الوحى :

يقال : وحيت إليه وأوحيت : إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة ببعض الجوارح .

والوحى مصدر ، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ؟ هما : الخفاء والسرعة : ولذا قيل فى معناه : الاعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويطلق ويراد به الموحى ، أى بمعنى اسم المفعول . والوحى بمعناه اللغوى يتناول :

١ — الإلهام الفطرى للإنسان ، كالوحى إلى أم موسى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ (٧ ـ القصص) .

٢ — الإلهام الغريزى للحيوان ، كالوحى إلى النحل ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ (٦٨ ـ النحل) .

٣ — الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى

إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ (١١ - مريم) .

٤ — وسوسة الشيطان وتزيينه الشر فى نفس الإنسان ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ (١٢١ - الأنعام) ، ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ (١١٢ - الأنعام) .

٥ — ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (١٢ - الأنفال) ووحى الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعاً بأنه : كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه ، وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أى الموحى .

وعرفه الأستاذ محمد عبده فى رسالة التوحيد بأنه : « عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام : وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » [1] .

(١) انظر كتاب : « الوحى المحمدى » للشيخ محمد رشيد رضا ص ٤٤ .

وهو تعريف للوحى بالمعنى المصدرى ، وبدايته وإن كانت توهم شبهه بحديث النفس أو الكشف إلا أن الفرق بينه وبين الإلهام الذى جاء فى عجز التعريف ينفى هذا والله أعلم .

كيفية وحى الله إلى ملائكته :

أولا : جاء فى القرآن الكريم ما ينص على كلام الله للملائكته : قال تعالى:﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ (٣٠ ـ البقرة) .

وعلى إيحائه إليهم :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (١٢ ـ الأنفال) .

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره :قال تعالى عن ملائكته ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ (٤ الذاريات) وقال : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ (٥ ـ النازعات) ، وهذه النصوص متآزرة تدل على أن الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه .

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى أن

يوحى بالأمر تكلم بالوحى ، أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة خوفا من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل ؟ فيقول جبريل : « قال الحق وهو العلى الكبير » فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عز وجل » أخرجه الطبرانى .

فهذا الحديث يبين أن كيفية الوحى تكلم من الله ، وسماع من الملائكة ، وهول شديد لأثره ، وإذا كان ظاهره - فى مرور جبريل وانتهائه بالوحى - يدل على أن ذلك خاص بالقرآن ، فإن صدره يبين كيفية عامة ، وأصله فى الصحيح : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان » .

ثانيا : وثبت أن القرآن الكريم كتب فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ ﴾ (٢١ ، ٢٢ البروج) .

كما ثبت إنزاله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة

القدر من شهر رمضان : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ (١ ـ القدر) ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ (٣ ـ الدخان) ، ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ (١٨٥ ـ البقرة) .

وفى السنة ما يوضح هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عباس موقوفا : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ثم قرأ :

﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ (٢٣ـ الفرقان) ، ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ (١٠٦ ـ الإسراء) ، أخرجه الحاكم والبيهقى والنسائى . وفى رواية : « فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم » أخرجه الحاكم وابن أبى شيبة .

وقد ذهب العلماء فى كيفية وحى الله إلى جبريل بالقرآن إلى مذاهب منها أن جبريل تلقفه سماعا من الله بلفظه المخصوص، ومنها أن جبريل حفظه من اللوح المحفوظ ومنها أن جبريل ألقى إليه المعنى والألفاظ لجبريل أو لمحمد ﷺ ، وهذا رأى ضعيف . والرأى

الاول هو الصواب وعليه أهل السنة .

ونسبة القرآن إلى الله فى أكثر من آية :

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ (٦ - النمل).

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (٦- التوبة) .

﴿ وإذ اتتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى ﴾ (١٥ — يونس) .

فالقرآن الكريم كلام الله بألفاظه ، لا كلام جبريل ، ولا كلام محمد .

أما الرأى الثانى فلا اعتبار له ، إذ أن ثبوت القرآن فى اللوح المحفوظ كثبوت سائر المغيبات التى لا يخرج القرآن عن أن يكون جملتها .

والرأى الثالث أنسب بالسنة لأنها وحى من الله أوحى إلى جبريل ثم إلى محمد ﷺ بالمعنى ، فعبر عنه رسول الله بعبارته ﴿ وما ينطق عن الهوى ،إنه هو إلا وحى يوحى﴾ (٣ ، ٤ — النجم) ولذا جازت رواية السنة بالمعنى لعارف بما لا يحيل المعانى دون القرآن .

وسبق أن ذكرنا الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي فمن خصائص القرآن :

١ — أنه معجز . ٢ — قطعي الثبوت .

٣ — يتعبد بتلاوته .

٤ — ويجب اداؤه بلفظه .

والحديث القدسي — على القول بنزول لفظه — ليس كذلك .

والحديث النبوي قسمان : الأول ما اجتهد فيه الرسول ﷺ وهذا ليس وحيا ويكون إقرار الوحي له بسكوته إذا كان صوابا ، والثاني : ما أوحي إليه بمعناه واللفظ لرسول الله ، ولذا يجوز روايته بالمعنى ، والحديث القدسي على القول الراجح بنزول معناه دون لفظه يكون من هذا القسم ونسبته إلى الله في الرواية لورود النص على ذلك دون الأحاديث النبوية .

كيفية وحي الله إلى رسله :

الله يوحي إلى رسله بواسطة وبغير واسطة فالأولى : بواسطة جبريل ملك الوحي وسيأتي بيانه ، والثاني : وهو الذي لا واسطة فيه . يأتي على أوجه منها .

الرؤيا الصالحة في المنام ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت :

« أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح متفق عليه وكان ذلك تهيئة لرسول الله حتى ينزل عليه الوحى يقظة ، وليس فى القرآن شىء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافا لمن ادعى نزول سورة « الكوثر » مناما للحديث الوارد فيها ، فنى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلت : ما أضحكك يارسول الله ؟ فقال : « نزلت على آنفاً سورة» فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر ﴾ فلعل الإغفاءة هذه هى الحالة التى كانت تعتريه عند الوحى . ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء فى المنام وحى يجب اتباعه ما جاء فى قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل . هذا هو الصواب ، خلافا لمن ذهب إلى أنه اسحاق ، فإن البشارة كانت أولا بإسماعيل قبل إسحاق وإسماعيل هو الذى نشأ فى الجزيرة العربية حيث كانت قصة الذبح وهو الحرى بأن يوصف بالحلم ﴿ فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى

قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ (١٠١ — ١١٢ — الصافات) ولو لم تكن هذا الرؤيا وحيا يجب اتباعه لما قدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء .

والرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول ، فهى باقية للمؤمنين وإن لم تكن وحيا كما قال عليه الصلاة والسلام « انقطع الوحى وبقيت المبشرات ، رؤيا المؤمن » والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى ﴿ ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه علىحكيم ﴾ (٥١ ــ الشورى) .

ومنه الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظة وهو ثابت لموسى عليه السلام ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ﴾ (١٤٣ . الأعراف) ، ﴿ وكلم الله

موسى تكليما﴾ (١٦٤ — النساء) .

كما ثبت التكلم على الاصح لرسولنا (ص) ليلة الاسراء والمعراج . وهذا النوع هو القسم الثانى المذكور فى الآية ﴿أو من وراء حجاب﴾ وليس فى القرآن شىء منه كذلك .

كيفية وحى الملك إلى الرسول :

وحى الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة ، وهو ما ذكرناه آنفا ، وكان منه الرؤيا الصالحة فى المنام ، والكلام الإلهى من وراء حجاب يقظة — وإما أن يكون بواسطة ملك الوحى وهو الذى يعنينا فى هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به .

ولا تخلو كيفية وحى الملك إلى الرسول من إحدى حالتين :

الحالة الأولى — وهى أشدها على الرسول — أن يأتيه مثل صلصلة الجرس ، والصوت القوى يثير عوامل الانتباه فتتهيأ النفس بكل قواها لقبول أثره ، فإذا نزل الوحى بهذه الصورة على الرسول ﷺ نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه ، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه فى الحديث « إذا قضى الله لأمر فى السماء ضربت

الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان » رواه البخارى وقد يكون صوت الملك نفسه فى أول سماع الرسول له .

والحالة الثانية : أن يتمثل له الملك رجلا ويأتيه فى صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من سابقتها ، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحى ، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان .

والهيئة التى يظهر فيها جبريل بصورة رجل لا يتحتم فيها أن يتجرد من روحانيته ، ولا يعنى أن ذاته انقلبت رجلا . بل المراد أنه يظهر بتلك الصورة البشرية أنسا للرسول البشرى ، ولا شك أن الحالة الأولى — حالة الصلصلة — لا يوجد فيها هذا الإيناس ، وهى تحتاج إلى سمو روحى من رسول الله يتناسب مع روحانية الملك فكانت أشد الحالتين عليه ، لأنها كما قال ابن خلدون « انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية ، والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية » .

وكلتا الحالتين مذكور فيما روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول

الله ﷺ فقال : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » ؟ . وروت عائشة رضى الله عنها ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت :

« ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا » رواه البخارى .

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهى المشار إليه فى الآية ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله ﴾ .

١ — إلا وحيا .   ٢ — أو من وراء حجاب .

٣ — أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه على حكيم (٥١ — الشورى) .

أما النفث فى الروع ، أى القلب ، فقد ذكره فى قول الرسول ﷺ « إن روح القدس . نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » رواه أبو نعيم فى الحلية بسند صحيح والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة ، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين فى حديث عائشة ، فيأتيه الملك فى مثل الصلصلة وينفث فى روعه ، أو

يتمثل له رجلا وينفث فى روعه . وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم . والله أعلم وبعد أن انتهى من الكلام على الوحى شرع يتكلم على أسماء القرآن واسماء سوره فقال وهذا .

قول آخر فى أسمائه وأسماء سوره

قال الجاحظ سمى الله كتابه إسما مخالفاً لما سمى العرب كلامهم على الجمل والتفصيل سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا وبعضه سورة كقصيدة و بعضها آية كالبيت وآخرها فاصلة كقافية وقال أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك المعروف بشيدلة بضم عين عزيزى فى كتاب البرهان إعلم أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين إسما سماه كتاباً ومبيناً فى قوله حم والكتاب المبين وقرآنا وكريما فى قوله إنه لقرآن كريم وكلاما حتى يسمع كلام الله ونورا وأنزلنا إليكم نورا مبينا وهدى ورحمة ، هدى ورحمة للمؤمنين وفرقانا من قوله تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، وشفاء ، وننزل من القرآن ما هو شفاء ، وموعظة قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وذكرا مباركا من قوله وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، وعليا ، وأنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم وحكمة . حكمة بالغة وحكيما . تلك آيات الكتاب الحكيم . ومهيمنا .

مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه . وحبلا . من قوله ﴿واعتصموا بحبل الله﴾ . وصراطا مستقيما . من قوله ﴿وإن هذا صراطا مستقيما﴾ . وقيما — من قوله ﴿ قيما لتنذر به وقولا وفصلا ﴾ إنه لقول فصل . ونبأ عظيماً . عم يتساءلون عن النبأ العظيم وأحسن الحديث ومثانى ومتشابها الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، وتنزيلا من أمرنا ووحيا إنما أنذركم بالوحى وعربيا قرآنا عربيا وبصائر . هذا بصائر وبيانا هذا بيان للناس وعلما من بعد ما جاءك من العلم وحقا إن هذا لهو القصص الحق وهاديا . إن هذا القرآن يهدى . وعجبا . قرآنا عجبا وتذكرة وإنه لتذكرة . والعروة الوثقى . فقد استمسك بالعروة الوثقى . وصدقا والذى جاء بالصدق . وعدلا . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا . وأمرا . ذلك أمر الله أنزله إليكم ومناديا ينادى للايمان . وزبورا . ولقد كتبنا فى الزبور وبشيرا ونذيرا . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا . وعزيزا . وإنه لكتاب عزيز . وبلاغا . هذا بلاغ للناس . وقصصا . أحسن القصص وسماه أربعة أسماء فى آية واحدة فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة أنتهى فأما تسميته كتابا فلجمعه أنواع العلوم والقصص

والأخبار على أبلغ وجه ، والكتاب لغة الجمع . والمبين لأنه أبان أى أظهر الحق من الباطل وأما أسماء سوره فقد قال السيوطى فى الاتقان قال الجعبرى السورة هى قرآن يشتمل على آى ذى فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات وقال غيره السورة طائفة مترجمة توقيفا وهى مسماة باسم خاص بتوقيف من النبى صل الله عليه وسلم وقد أسمــاء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ويدل على ذلك ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة . قال كان المشركون يقولون سورة البقرة وسورة العنكبوت يستهزئون بها فنزلت: إنا كفيناك المستهزئين. وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير وقد يكون لها اسمان فأكثر ومن ذلك الفاتحة وقد وقفت لها على نيف وعشرين اسما وذلك يدل على شرفها فإن كثرة الأسماء دالة على شرف المسمى ، أحدها فاتحة الكتاب قال ﷺ هى أم القرآن وهى فاتحة الكتاب وهى السبع المثـانى ، وأم الكتاب وأم القرآن والقرآن العظيم ، والوافية ، والكنز ، والرقية والشفاء والدعاء والمناجاة والتفويض . وسورة البقرة تسمى فسطاط القرآن . وسنام القرآن) وسورة آل عمران تسمى فى التوراة طيبة وهى والبقرة الزهراوين . والمائدة تسمى العقود والمنقذة . والأنفال تسمى بدر .

وبراءة تسمى التوبة . وسورة العذاب والمقشقشة . والنحل تسمى النعم . والإسراء تسمى سبحانه. وسورة بنى إسرائيل وسورة النمل تسمى سورة سليمان . وغافر تسمى الطول . والمؤمن ، والجـاثية تسمى الشريعة . وسورة محمد تسمى القتال . وسورة الرحمن تسمى عروس القرآن والحشر بنى النضير . وسأل المعارج. والنصر بالتوديع وتبت بالمسد . والإخلاص بالاساس والفلق والناس بالمعوذتين وكل اسم من الاسماء السابقة ورد بالاحاديث والآثار .

المكى والمدنى

وعلامات كل منهما

من المعروف أن الأمم تولى اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها ، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التى شرفت بها الإنسانية جمعاء لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها ، وإنما هى — فوق زادها الفكرى وأسسها الإصلاحية — دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب فنجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطا يحدد الزمان والمكان

وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدريج فى الأحكام والتكاليف ، ومما روى فى ذلك ما قاله ابن مسعود رضى الله عنه « والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » .

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص فى أسلوبها إزاء كل فساد فى العقيدة والتشريع والخلق والسلوك ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها وتربية اللبنات التى تأخذ على عاتقها القيام بها ، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة .

والذي يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى الأحكام والتشريع .

فحيث كان القوم فى جاهلية تعمى وتصم ، يعبدون الأوثان

ويشركون بالله ، وينكرون الوحى ، ويكذبون بيوم الدين وكانوا يقولون : ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ (١٦ — الصافات) ويقولون

﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيـــا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٢٤ — الجاثية) وهم ألداء فى الخصومة ، أهل مماراة ولجاجة فى القول عن فصاحة وبيان — حيث كان القوم كذلك نزل الوحى المكى قوارع زاجرة ، وشهبا منذرة ، وحججا قاطعة يحطم وثنيتهم فى العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية أو يهتك أستار فسادهم ويسفه أحلامهم ويقيم دلائل النبوة أو يضرب الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم — على فصاحتهم — بأن يأتوا بمثل القرآن ويسوق إليهم المكذبين الغابرين عبرة وذكرى ، فتجد فى مكى القرآن ألفاظا شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد وألسنة العذاب ، فكلا الرادعة الزاجرة ، والصاخة ، والقارعة ، والغاشية ، والواقعة ، وألفاظ الهجاء فى فواتح السور وآيات التحدى فى ثناياها ، ومصير الأمم السابقة ، وإقامة الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية .

كل هذا نجده فى خصائص القرآن المكى .

وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ، وامتحنت فى عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة حين تكونت هذه الجماعة — نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ؛ وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله وتفصل أصول التشريع ، وتضع قواعد المجتمع ، وتحدد روابط الأسرة وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأمم ، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم ، وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم وهذا هو الطابع العام للقرآن المدنى .

عناية العلماء بالمكى والمدنى وأمثلة على ذلك وفوائده :

قد عنى العلماء بتحقيق المكى والمدنى عناية فائقة ، فتتبعوا القرآن آية آية وسورة سورة ، لترتيبها وفق نزولها ، مراعين فى ذلك الزمان والمكان والخطاب لا يكتفون بزمن النزول ، ولا مكانه ، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ، وهو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمى فى علم المكى والمدنى وهو شأن علمائنا فى تناولهم لمباحث القرآن الأخرى .

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحى فى جميع مراحله ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها ، ويحدد مكانه ، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها ، أهو من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة فى المدينة ؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجح بينها لجمل بعضها شبيها بما نزل فى المدينة ، وإذا كانت الآيات نزلت فى مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها فى مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك ،فقالوا : ما حمل من مكة إلى المدينة أو ما حمل من المدينة إلى مكة .

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتاب التنبيه على فضل علوم القرآن : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة . وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى وما نزل بمكة فى أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى فى المكى وما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، وما نزل

ليلا وما نزل نهاراً ، وما نزل مشيعا[١] وما نزل مفردا ، والآيات المدنيات فى السور المكية والآيات المكيات فى السور المدنية وما حمل من المدينة إلى مكة أو ما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجملا ، وما نزل مفسراً ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدنى وبعضهم مكى ، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى ».

وحرص العلماء على الدقة ، فرتبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا أو ازدادوا حرصاً فى الاستقصاء ففرقوا بين ما نزل ليلا وما نزل نهارا ، وما نزل صيفا وما نزل شتاء ، وما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر .

وأهم الأنواع التى يتدارسها العلماء فى هذا المبحث :

١ — ما نزل بمكة　　٢ — ما نزل بالمدينة
٣ — ما اختلف فيه　　٤ — الآيات المكية فى السور المدنية
٥ — الآيات المدنية فى السور المكية　　٦ — ما نزل بمكة وحكمه مدنى ٧ — ما نزل بالمدينة وحكمه مكى ٨ — ما يشبه

---

(١) السيوطى فى الاتقان .

نزول المكى فى المدنى ٩ — ما يشبه نزول المدنى فى المكى
١٠ — ما حمل من مكة إلى المدينة ١١ — ما حمل من المدينة
إلى مكة ١٢ — ما نزل ليلا وما نزل نهاراً ١٣ — ما نزل
صيفا وما نزل شتاء ١٤ — ما نزل فى الحضر وما نزل فى
السفر .

فهذه أنواع أساسية ، يرتكز محورها على المكى والمدنى ،
ولذا سمى هنا « بعلم المكى والمدنى »

وأقرب ما قيل فى تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة
أن المدنى عشرون سورة :

١ — البقرة ٢ — آل عمران ٣ — النساء ٤ — المائدة
٥ — الأنفال ٦ — التوبة ٧ — النور ٨ — الأحزاب
٩ — محمد ١٠ — الفتح ١١ — الحجرات ١٢ — الحديد
١٣ — المجادلة ١٤ — الحشر ١٥ — الممتحنة ١٦ — الجمعة
١٧ — المنافقون ١٨ — الطلاق ١٩ — التحريم ٢٠ — النصر

وأن المختلف فيه اثنا عشر سورة

١ — الفاتحة ٢ — الرعد ٣ — الرحمن ٤ — الصف

٥ — التغابن ٦ — التطفيف ٧ — القدر ٨ — البينة
٩ — الزلزلة ١٠ — الإخلاص ١١ — الفلق ١٢ — الناس

وأن ما سوى ذلك مكى . وهو اثنتان وثمانون سورة ، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة .

وكون بعض الآيات المكية فى السور المدنية : لا يقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون فى المكية بعض آيات مدنية ، وفى المدنية بعض آيات مكية ولكنه وصف أغلبى حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتى فى التسمية سورة كذا مكية إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكية — كما نجد ذلك فى المصاحف .

ومن أمثلة الآيات المكية فى السور المدنية « سورة الأنفال » مدنية واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٣٠ — الأنفال) قال مقاتل هذه الآية : نزلت بمكة ، وظاهرها كذلك ؛ لأنها تضمنت ما كان من المشركين فى دار الندوة عند تآمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، واستثنى بعضهم كذلك ﴿ يأيها

النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ (٦٤ — الأنفال) لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ومن أمثلة الآيات المدنية فى السور المكية « كسورة الأنعام » قال ابن عباس نزلت بمكة جملة واحدة فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ﴿قل تعالوا أتل﴾ إلى تمام الآيات الثلاث ١٥١ — ١٥٣ الأنعام و « سورة الحج » مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، من أول قوله تعالى ﴿هذان خصمان إختصموا فى ربهم﴾ (١٩ الحج)

وأما ما نزل بمكة وحكمه مدنى . فيمثلون له بقوله تعالى ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (١٣ الحجرات)، فإنها نزلت بمكة يوم الفتح وهى مدنية لأنها بعد الهجرة ، والخطاب فيها عام ، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكيا كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين ، بل يقولون فيه : ما نزل بمكة وحكمه مدنى .

وكذا ما نزل بالمدينة وحكمه مكى ويمثلون له بسورة

الممتحنة ، فإنها نزلت بالمدينة، فهى مدنية باعتبار المكان ولكن الخطاب فى ثناياها توجه إلى مشركى أهل مكة ... ومثل هذا صدر سورة براءة نزلت بالمدينة ، والخطاب فيه لمشركى أهل مكة .

وأما مايشبه نزول المكى فى المدنى : ويعنى العلماء به ما كان فى السور المدنية من آيات جاء أسلوبها فى خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الأنفال وهى مدنية ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ (٣٢الأنفال) فإن إستعجالهم للعذاب كان بمكة .

وأما ما يشبه نزول المدنى فى المكى : ويعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق ، ويمثلون له بقوله تعالى فى سورة النجم ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ (٣٢ النجم) قال السيوطى : فإن الفواحش كل ذنب فيه حد ؛ والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللمم ما بين الحدين من الذنوب ولم يكن بمكة حد ولا نحوه .

وأما ما حمل من مكة إلى المدينة : فمن أمثلته سورة

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أخرج البخارى عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به فما جاء حتى قرأت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فى سور مثلها . وهذا المعنى يصدق على كل ما حمله المهاجرون من القرآن وعلموه الأنصار .

وأما ما حمل من المدينة إلى مكة : فمن أمثلته أول سورة براءة ، حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر على الحج فى العام التاسع . فلما نزل صدر سورة براءة حمله رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر حتى يبلغ المشركين به ـ فأذن فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك

وأما ما نزل ليلا وما نزل نهاراً : أكثر القرآن نزل نهاراً أما ما نزل بالليل فقد تتبعه أبو القاسم الحسن بن حجر بن حبيب النيسابورى واستخرج له أمثلة منها : أواخر آل عمران ، أخرج ابن حبان فى صحيحه ، وابن المنذر وابن مردويه وابن أبى الدنيا

عن عائشة رضى الله عنها : أن بلالا أتى النبى صلى الله عليه وسلم يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى : فقال : يا رسول الله ما يبكيك قال : وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل على هذه الليلة ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾ (١٩٠ آل عمران) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر ومنها آية الثلاثة الذين خلفوا . وهى قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا)

ففى الصحيحين من حديث كعب « فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من الليل » ومنها : أول سورة الفتح ، ففى البخارى من حديث عمر « لقد نزلت على الليلة سورة هى أحب إلى مما طلعت الشمس ، فقرأ ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾

ما نزل صيفا وما نزل شتاء ويمثل العلماء بما نزل صيفا بآية الكلالة التى فى آخر سورة النساء .

ومن أمثلته الآيات التى نزلت فى غزوة تبوك ، فإنها كانت فى الصيف فى شدة الحر كما فى القرآن نفسه ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك فى سورة النور ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم... إلى قوله تعالى :لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ من(١١ — ٢٦ النور) ففى الصحيح عن عائشة « أنها نزلت فى يوم شات »

ومن أمثلته الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت في شدة البرد : أخرج البيهقي في دلائل النبوة عن حذيفة قال : « تفرق الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلا . فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ؛ قلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء ، من البرد ، فأنزل الله ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ (٩ الأحزاب)

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (١١٧ ، ١١٨ - التوبة) وهم الذين قبل الله عذرهم في التخلف بغزوة تبوك .

وأما قوله ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ (١٧٦ - النساء)

فالكلالة كما فى صريح الآية هو الميت الذى لا ولد له وله مال يورث .

وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر ﴾ (٨١ـ التوبة) ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم ﴿ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ (٨١ ـ التوبة) .

أما ما نزل فى الحضر وما نزل فى السفر : فأكثر القرآن نزل فى الحضر ، ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو فى سبيل الله حيث يتنزل عليه الوحى فى مسيره ، وقد ذكر السيوطى لما نزل فى السفر كثيراً من الأمثلة . منها أول سورة الأنفال ، نزلت ببدر عقب الواقعة ، كما أخرجه أحمد بن سعد بن أبى وقاص . وقوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ (٣٤ ـ التوبة) ، أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت فى بعض أسفاره ﷺ .

وأول سورة الحج ، فقد أخرج الترمذى والحاكم عن عمران بن حصين قال : « لما نزلت على النبى ﷺ ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ـ إلى قوله تعالى ـ ولكن عذاب الله شديداً ﴾ (٢ ـ الحج) أنزلت عليه هذه وهو فى سفر » وكذا سورة الفتح ، فقد أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة ومروان بن

الحكم قالا : « نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها » . وهكذا والله أعلم : وإليك

فوائد العلم بالمكى والمدنى :

فمن أهمها :

(١) الاستعانة به فى تفسير القرآن : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرا صحيحا ، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ويستطيع المفسر فى ضوء ذلك عند تعارض المعنى فى آيتين أن يميز بين الناسخ والمنسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخا للمتقدم .

(٢) تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها فى أسلوب الدعوة إلى الله فإن لكل مقام مقالا ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معانى البلاغة ، وخصائص أسلوب المكى فى القرآن والمدنى منه تعطى الدارس منهجا لطرائق الخطاب فى الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه لبه ومشاعره .

ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا

واضحا جليا بأساليب القرآن المختلفة فى مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

(٣) الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية : فإن تتابع الوحى على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها فى العهد المكى والعهد المدنى منذ بدأ الوحى حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذى لا يدع مجالا للشك فيما روى عن أهل السير موافقا له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

معرفة المكى والمدنى وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء فى معرفة المكى والمدنى على منهجين أساسيين المنهج السماعى النقلى والمنهج القياسى الاجتهادى .

والمنهج السماعى النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة من الصحابة الذين عاصروا الوحى ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين نقلوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ومعظم ما ورد فى المكى من هذا القبيل ، وفى الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك ، وقد خصت بها كتب التفسير بالمأثور ومؤلفات أسباب النزول ، ومباحث علوم القرآن ، ولم يرد عن رسول الله

ﷺ شيء فى ذلك ، حيث إنه ليس من الواجبات التى تجب على الأمة إلا بالقدر الذى يعرف به الناسخ والمنسوخ ، قال القاضى أبو بكر ابن الطيب الباقلانى فى « الانتصار » « إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ فى ذلك قول لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول.

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى وخصائص المدنى ، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية وهذا قياس اجتهادى ولذا قالوا مثلا : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا ، قال الجعبرى : « لمعرفة النقل ، والقياسى يعتمد على العقل. والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى .

وأما الفرق بين المكى والمدنى :

فللعلماء فى الفرق بين المكى والمدنى ثلاثة آراء إصطلاحية ، كل رأى منها بنى على اعتبار خاص .

الأول : اعتبار زمن النزول : فالمكى : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدنى : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة ، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة : أو عرفة مدنى ، كالذى نزل عام الفتح ، كقوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها ﴾ (٥٨ النساء)

فإنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم ، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (المائدة) وهذا الرأى أولى من الرأيين بعده لحصره واطراده.

الثانى : اعتبار مكان النزول : فالمكى : ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية ، والمدنى : ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقباء وسلع .

ويترتب على هذا الرأى عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة » فلا

يسمى مكيا ولا مدنيا كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكه بعد الهجرة يكون مكيا .

الثالث اعتبار المخاطب : فالمكى ما كان خطابا لأهل مكة والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة وينبغى على هذا الرأى عند أصحابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ﴾ مكى وما فيه من قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ مدنى .

وبالملاحظة تبين أن أكثر سور القرآن لم تفتتح بأحد المخاطبين وأن هذا الضابط لا يطرد فسورة البقرة مدنية وفيها ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ آية ٢١ سورة البقرة ، وقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ١٦٨ سورة البقرة ، وسورة النساء مدنية وأولها : ﴿ يا أيها الناس﴾ وسورة الحج مكية وفيها ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ آية ٧٧ سورة الحج ، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين .

وكما يقول الشيخ القطان : إنه يجوز أن يخاطب المؤمنون

بصفاتهم وبأسمائهم وأجناسهم ، كما يجوز أن يأمر غير المؤمنين بالعبادة، كما يأمرالمؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منهاوأما مميزات المكي والمدني :

فبعد أن استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية واستنبطوا منها ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني تبين خصائص الأسلوب في كل منهما ، بعد ذلك وضعوا علامات بها يتميز المكي من المدني وإليك .

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية :

أولا : كل سورة فيها لفظ [كلا] فهي مكية .

ثانياً : كل سورة فيها سجدة فهي مكية ولم ترد كلا إلا في النصف الأخير من القرآن ، وذكرت ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة .

ثالثاً : كل سورة فيها ﴿ يأيها الناس ﴾ وليس فيها ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهي مكية إلا سورة الحج ففي أواخرها ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾ ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك .

رابعاً : كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة .

خامساً : كل سورة تفتتح بحروف الهجاء كألم ، وكهيعص وحم والمر ونحو ذلك فهى مكية سوى البقرة وآل عمران واختلفوا فى سورة الرعد .

سادسا : كل سورة ذكرت فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة . هذا من ناحية الضوابط أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فإجمالها فيما يأتى — إمتازت السورة المكية بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام وإثبات الرسالة وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها والنار وعذابها والجنة ونعيمها ومجادلة المشركين بالحجة القاطعة والأدلة الواقعة ، ووضع الأسس العامة للتشريع والفضائل والأخلاق التى يقوم عليها كيان المجتمع وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء وأكل أموال الناس بالباطل ووأد البنات وما كانوا عليه من سوء العادات وذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على آذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم ، وقصر الفواصل « الآيات » مع قوة الألفاظ والايجاز فى العبارة بما يقرع الأسماع ويصخ الآذان ويصعق القلوب ، ويكثر من تأكيد المعنى بالقسم الكثير وكذلك قصر السور إلا القليل

إذ أن هذه العلامات والمميزات أغلبية لا حتمية وأما .

ضوابط المدنى وميزاته الموضوعة : فهى كما يلى :

أولا : أن كل سورة فيها فريضة أو حد يعنى تشريع فهى مدنية

ثانياً : كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية .

ثالثا : كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهى مدنية .

هذا من ناحية الضوابط أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :

بيان العبادات والمعاملات والحدود ونظام الأسرة والمواريث وفضل الجهاد والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب وقواعد الحكم ووسائل التشريع ، ومخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الاسلام وبيان تحريفهم لكتاب الله وتجنيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، وتحليل نفسية المنافقين وإزاحة الستار عن خباياهم وبيان خطرهم على الدين : طول السور والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح مراميها وأهدافها على أن هذه الضوابط علامات أغلبية لا حتمية كما سبق ذلك فى المكى إذ يوجد فى السور المكية بعض ما فى المدنية من العلامات لكن قليل وبالعكس .

معرفة أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه

اعلم وفقني الله وإياك أن التعبير عن تلقي رسول الله ﷺ للقرآن بنزوله عليه يشعر بقوة يلمسها المرء في تصور كل هبوط من أعلى ، ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التي حولت مجرى حياة البشرية فيها تغيراً ربط السماء بالأرض ، ووصل الدنيا بالآخرة ، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل — وهو القرآن — تعطي الدارس صورة عن التدرج في الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التي نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق ، وقد تناول هذا الباب أول ما أنزل من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق ، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام ، كالاطعمة ، والاشربة والقتال ، ونحو ذلك ، وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق ، وآخر ما نزل كذلك أقوال ، نجملها ونرجح بينها فيما يأتي :

فأول ما نزل :

أصح الأقوال أن أول ما نزل على الإطلاق هو قوله تعالى:

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت « أول ما بدء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيـــه فقال اقرأ ، قال رسول الله ﷺ : فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهـد ، ثم أرسلنى فقال إقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهـــد ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره . . . . . » الحديث .

وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعـالى : « يأيها المدثر » لما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر ابن عبدالله أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : يأيها المدثر ، قلت :

أو اقرأ باسم ربك ؟ قال : أحدثكم ماحدثنا به رسول الله ﷺ : إنى جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو — يعنى جبريل — فأخذتنى رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ، فأنزل الله : ﴿ يأيها المدثر ، قم فأنذر ﴾ .

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة ، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ ، فإن أول مانزل منها صدرها — ويؤيد هذا ما فى الصحيحين أيضاً عن أبى سلمة عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : بينا أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت ، فقلت : زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله : « يأيها المدثر » فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء .

— أو تكون المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحى — وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده فتقدم عليه رواية عائشة . ويكون أول مانزل من القرآن على الإطلاق « اقرأ » وأول سورة نزلت

كاملة ، أو أول ما نزل بعد فترة الوحى « يأيها المدثر » أو أول ما نزل للرسالة (يا أيها المدثر) وللنبوة (إقرأ) .

وقيل إن أول ما نزل هو سورة « الفاتحة » ولعل المراد أول سورة كاملة .

وقيل : « بسم الله الرحمن الرحيم » والبسملة تنزل صدراً لكل سورة . ودليل هذين أحاديث مرسلة والقول الأول المؤيد بحديث عائشة هو الراجح المشهور .

وقد ذكر الزركشي فى « البرهان » حديث عائشة الذى نص على أن أول ما نزل : (يأيها المدثر ، قم فأنذر) ثم قال : « وجمع بعضهم بينهما بأن جابرا سمع النبى ﷺ يذكر قصة بدء الوحى ، فسمع آخرها ، ولم يسمع أولها ، فتوهم أنها أول ما نزلت ، وليس كذلك ، نعم هى أول ما نزل بعد سورة « اقرأ » وفترة الوحى ، لما ثبت فى الصحيحين أيضاً عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يحدث عن فترة الوحى ، قال فى حديثه : « بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء ، فرفعت رأسى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه فرجعت فقلت : زملونى ، فأنزل الله تبارك وتعالى

﴿ يأيها المدثر ، قم فأنذر ﴾ ، فقد أخبر فى هذا الحديث عن الملك الذى جاءه بحراء قبل هذه المرة ، وأخبر فى حديث عائشة أن نزول « إقرأ » كان فى غار حراء ، وهو أول وحى ، ثم فتر بعد ذلك، وأخبرنى فى حديث جابر أن الوحى تتابع بعد نزول ﴿ يأيها المدثر ﴾ فعلم بذلك أن (اقرأ) أول ما نزل مطلقا ، وأن سورة المدثر بعده » .

وكذلك قال ابن حبان فى صحيحه : لا تضاد بين الحديثين ، بل أول ما نزل (إقرأ باسم ربك الذى خلق) بغار حراء ، فلما رجع إلى خديجة رضى الله عنها وصبت عليه الماء البارد ، أنزل الله عليه فى بيت خديجة : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ فظهر أنه لما نزل عليه ﴿ اقرأ ﴾ رجع فتدثر ، فأنزل عليه ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

وقيل : أول ما نزل سورة الفاتحة ، روى ذلك من طريق أبى أسحاق عن أبى ميسرة قال « كان رسول الله ﷺ إذا سمع الصوت انطلق هارباً ، وذكر نزول الملك عليه وقوله قل ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ إلى آخرها .

وقال القاضى أبو بكر فى « الإنتصار » وهذا الخبر منقطع وأثبت الأقاويل أن أول ما نزل من الآيات ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾

وأول ما نزل من أوامر التبليغ ﴿ يأيها المدثر ﴾ وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة ، وهذا كما ورد في الحديث « أول ما يحاسب به العبد الصلاة » و « أول ما يقضى فيه الدماء » وجمع بينهما بأن أول ما يحكم فيه من المظالم التي بين العباد الدماء ، وأول ما يحاسب به العبد من الفرائض البدنية الصلاة .

وقيل : أول ما نزل للرسالة : ﴿ يأيها المدثر ﴾ وللنبوة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فإن العلماء قالوا . قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ دال على نبوة محمد ﷺ : لأن النبوة عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف خاص ، وقوله تعالى : ﴿ يأيها المدثر قم فأنذر ﴾ دليل على رسالته ﷺ ، لأنها عبارة عن الوحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام والله أعلم .

آخر ما نزل

١ — قيل آخر ما نزل آية الربا : لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال : « آخر آية نزلت آية الربا » والمراد بها قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ﴾ الآية .

٢ — وقيل آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى ﴿ واتقوا

يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية لما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخر شىء نزل من القرآن » ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ الآية .

وقيـــل آخر ما نزل آية الدين ، لـما روى عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين ، والمراد بها : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ الآية .

ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة كترتيبها فى المصحف ، آية الربا ، فآية ﴿ واتقوا يوماً ﴾ فآية الدين ، لأنها فى قصة واحدة فأخبر كل راو عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح ، وبهذا لا يقع التنافى بينها .

وقيـــل آخر ما نزل آية الـكلالة . فقد روى الشيخان وحملت الآخرية هنا فى قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث .

وقيـــل آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة ففى المستدرك عن أبى بن كعب قال : آخر آية نزلت ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر

السورة وحمل هذا على أنها آخر ما نزل من سورة براءة .

رواه مسلم عن ابن عباس ، ويحمل هذا الخبر على أن هذه السورة . آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبى ﷺ كما فهم بعض الصحابة منها ذلك . أو أنها آخر ما نزل من السور .

وقيـل آخر ما نزل سورة المائدة ، لما رواه الترمذى والحاكم فى ذلك عن عائشة رضى الله عنها ، وأجيب بأن المراد أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام ، فلم تنسخ فيها أحكام .

وقيـل آخر ما نزل قوله تعالى ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ لما أخرجه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة أنها قالت آخر آية نزلت هذه الآية ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ إلى آخرها ، وذلك أنها قالت : يا رسول الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء فنزلت ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ ونزلت ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ ونزلت هذه الآية ، فهى آخر الثلاثة نزولا ، وآخر ما نزل بعدها كان ينزل فى الرجال خاصة » .

ويتضح من الرواية أن الآية المذكورة آخر الآيات الثلاث

نزولا وأنها آخر ما نزل بالنسبة إلى ما ذكر فيه النساء .

٨ — وقيل آخر ما نزل آية ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما ﴾ لما أخرجه البخارى وغيره عن ابن عباس قال : هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم ﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شىء ، والتعبير بقوله « وما نسخها شىء » يدل على أنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمداً .

٩ — وعن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت « إذا جاء نصر الله والفتح » ، وهذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ ، وكل قال بضرب من الإجتهاد وغلبة الظن .

ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل فى تشريع خاص أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذى خرجنا به كل قول منها .

أما قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٣ المائده) فإنها نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، ويدل ظاهرها على إكمال الفرائض والأحكام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما روى فى نزول آية

الربا ، وآية الدين وآية الكلالة ، وغيرها بعد ذلك . لذا حمل كثير من العلماء إكمال الدين فى هذه الآية على أن الله أتم عليهم نعمته بتمكينهم من البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه أو حجهم وحدهم دون أن يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، وقد كان المشركون يحجون معهم من قبل وذلك من تمام النعمة ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾ قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى « الانتصار » معلقاً على اختلاف الروايات عن آخر ما نزل هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الإجتهاد وغلبة الظن أو يحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو ، ويحتمل أيضاً أن تنزل هذه الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك ، فيظن أنه آخر ما نزل فى الترتيب . ثم إليك:

أوائل موضوعية :

وقد تناول العلماء أوائل ما نزل بالنسبة إلى موضوعات خاصة، ومن ذلك :

١ — أول ما نزل فى الأطعمة : فأول آية نزلت بمكة آية الأنعام ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ (١٤٥ الأنعام)، ثم آية النحل ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ (١١٤ ، ١١٥ النحل)

ثم آية البقرة ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ (١٧٣ البقرة) .

ثم آية المائدة ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر فى مخمصة غير

متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ (٣ المائدة).

٢ — **أول ما نزل فى الأشربة : أول آية نزلت فى الخمر آية** البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (٢١٩ البقرة) .

ثم آية النساء ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (٤٣ — النساء) .

ثم آية المائدة ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾(٩٠ ، ٩١ — المائدة) .

عن ابن عمر قال : « نزل فى الخمر ثلاث آيات ، فأول شىء ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ ، الآية ، فقيل حرمت الخمر ، فقالوا يارسول الله : دعنا ننتفع بها كما قال الله ، فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ فقيل حرمت الخمر ، فقالوا يا رسول الله ألا نشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ثم نزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ﴾ الآية ،

فقال رسول الله ﷺ : حرمت الخمر .

٣ — **أول ما نزل فى القتال** : عن إبن عباس قال : أول آية نزلت فى القتال ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٣٩ — الحج) والله أعلم .

فوائد هذا المبحث :

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن فوائد أهمها :

(أ) بيان العناية التى حظى بها القرآن الكريم صيانة له وضبطا لآياته .

فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية ، فعرفوا متى نزلت ؟ وأين نزلت ؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله ﷺ ما يتنزل عليه من القرآن تلقى المؤمنين لأصول دينهم ، ومبعث إيمانهم ، ومصدر عزهم ومجدهم ، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٩ — الحجر) .

(ب) — إدراك أسرار التشريع الإسلامى فى تاريخ مصدره الأصيل : فإن آيات القرآن الكريم عالجت النفس البشرية بهداية السماء ، وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التى ترقى بنفوسهم

فى سلم الكمال ، وتدرجت بهم فى الأحكام التى يستقيم بها منهج حياتهم على الحق . وتنظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم .

(ج) — تمييز الناسخ عن المنسوخ ، فقد ترد الآيتان أو الآيات فى موضوع واحد ، ويختلف الحكم فى إحداها عن الأخرى ، فإذا عرف ما نزل أولا وما نزل آخرا كان حكم ما نزل آخراً ناسخاً لحكم ما نزل أولا .

مرات نزول القرآن

قد شرف الله القرآن الكريم بأن جعل له تنزيلات ثلاث

الأولى إلى اللوح المحفوظ ودليله قوله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمه إلا الله جل جلاله ومن أطلعه من عباده على غيبه ، وكان جملة لا مفرقاً لأنه الظاهر من اللفظ عند الاطلاق ولا صارف عنه ، وليس هناك حكمة لتنجيمه فى هذا النزول كما حصل فى تنجيمه عند نزوله على الرسول ﷺ ، وترجع حكمة هذا النزول إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلا جامعا لكل ما قضى الله وقدر وما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين ، فهو شاهد ناطق ومظهر من أروع المظاهر

الدالة على عظمة الله وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه . ولا ريب أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه ويبعث الطمأنينة إلى نفسه والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشئونه فى عباده ، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القضاء والقدر ومن هنا تهون عليه الحياة بسرائها وضرائها كما قال جل وعلا:

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ آية ٢٢ من سورة الحديد .

على أن الإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح فى استقامة العبد المؤمن على الجادة وتفانيه فى طاعة الله ومرضاته ، ويبعده عن مساخطه ومعاصيه لاعتقاده أنها مسطورة عند الله فى لوحه مسجلة لديه فى كتابه . قال جل ذكره ﴿ وكل صغير وكبير مستطر ﴾ آية ٥٣ من سورة القمر .

الثانى . من التنزيلات النزول إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ودليله قوله سبحانه فى سورة الدخان .

﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ آية ٣ من سورة الدخان وكذا قوله ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ وفى سورة البقرة ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ آية ﴿ ١٨٥ من سورة البقـرة .

فهذه الآيات تدل على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من آية الدخان وتسمى ليلة القدر من سورة القدر وهى من ليالى شهر رمضان ، وذلك جمعا بين النصوص الثلاثة فى العمل بها ودفعا للتعارض فيما بينها . ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبى ﷺ مفرقاً منجماحسب الحوادث والوقائع والاسئلة التى تختلج فى صدور العرب ولم ينزل عليه فى ليلة واحدة بل فى ثلاث وعشرين سـنة فتعين أن يـكون النزول التى دلت عليه الآيات الثلاث السابقة نزولا من نوع آخر غير النزول على النبى ﷺ وقد جاءت الاخبار الصحيحة لمـكان هذا النزول وأنه فى بيت العزة من السماء الدنيا كما تدل عليه الروايات الآتية . فقد أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العـزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به النبى ﷺ . وأخرج النسائى

والحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر . ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة » ثم قرأ ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾ آية ٣٣ سورة الفرقان ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾ آية ١٠٦ سورة الإسراء .

وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا » وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ .

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الاسود فقال أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ .

وقوله : ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤده ورفق » . فهذه الأحاديث الأربعة من جملة أحاديث ذكرت

فى هذا الباب وكلها صحيحة كما قال العلامة السيوطى وهى أحاديث موقوفة عن ابن عباس . غير أن لها حكم المرفوع إلى النبى ﷺ لما هو مقرر من أن قول الصحابى لا مجال للرأى فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فحكمه حكم المرفوع ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التى لا تعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بهذه الأحاديث . وكان هذا النزول جملة واحدة فى ليلة واحدة هى ليلة القدر كما علمت لأنه المتبادر من التصور للنصوص الثلاثة السابقة وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى عرضت من قبل بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، والحكمة فى هذا النزول كما نقل العلامة أبو شامة هى تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم وبإنزاله مرتين مرة جملة ومرة مفرقا . بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة ومرة واحدة .

أما التنزيل الثالث للقرآن فهو واسطة عقد التنزيلات لأنه

المرحلة الاخيرة فمنها شع النور على العالم وبه وصلت هداية الله إلى الخلق وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحى جبريل يهبط به على قلب النبى صلى الله عليه وسلم كما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ .

وخلاصة القول فى كيفية أخذ جبريل القرآن وعمن أخذ فهى كما قال العلامة الزرقانى فى مناهل العرفان قال البيهقى فى معنى قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ يريد والله أعلم أنا أسمعنا الملك وأفهمناه وأنزلناه بما سمع . ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعا ويرى أنه أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله عز وجل لا من ناحية تأويل النزول فى الآية بابتداء النزول . ويؤيد ذلك ما أخرجه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا تكلم بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله فاذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهى به حيث أمر » انتهى .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير غرض

مادمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله وحده تعالى : المهم نعلم في هذا المقام أن الذى نزل به جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس وهذه الالفاظ هى كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى إنشائها وترتيبها بل الذى رتبها أولا هو الله سبحانه وتعالى ولذلك تنسب له دون سواه وإن نطق بها جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم وملايين الخلق من بعد محمد وجبريل من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة .

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك أنه تعظيم لشأن القرآن ، وتشريف المنزل عليه ، قال السيوطى : قيل السر فى إنزاله جملة إلى السماء وتفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم لينزل عليهم . ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع لهبط به على الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله باين بينه وبينها ، فجعل له الأمرين : إنزاله جملة ، ثم إنزاله مفرقا ، تشريفا للمنزل عليه » وقال السخاوى فى جمال القراء : فى نزوله

إلى السماء جملة تكريم بنى آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم ، ورحمته لهم . ولهذا المعنى أمر الله سبعين ألفا من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام ، وزاد سبحانه فى هـذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائه على السفرة الكرام البررة وإنساخهم إياه وتلاوتهم له »

نزول القرآن منجما

يقول تعالى فى التنزيل ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ (١٩٢ — ١٩٥ الشعراء) ويقول : ﴿ قل نزله الروح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ (١٠٢ — النحل)

ويقول ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ (٢ — الجاثية)

ويقول ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ (٢٣ — البقرة) .

ويقول : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٩٧ البقرة)

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية ، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا النزول غير النزول الاول إلى سماء الدنيا فالمراد به نزوله منجما ، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدريج والتنجيم ، فإن علماء اللغة يفرقون بين الإنزال والتنزيل ، فالتنزيل لما نزل مفرقا ، والإنزال أعم .

وقد نزل القرآن منجما فى ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأى الراجح ، وعشر بالمدينة ، وجاء التصريح بنزوله مفرقا فى قوله تعالى ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ (١٠٦ — الإسراء)

أى جعلنا نزوله مفرقا كى تقرأه على الناس على مهل وتثبت ونزلناه تنزيلا بحسب الوقائع والاحداث .

أما الكتب السماوية الاخرى — كالتوراة والإنجيل والزبور فكان نزولها جملة ولم تنزل مفرقة ، يدل على هذا قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ (٣٢ — الفرقان)

فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة وهو ما عليه جمهور العلماء ، ولو كان نزولها مفرقا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجماً فمعنى قولهم ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ هلا أنزل القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب ؟ وما له أنزله على التنجيم ؟ ولم أنزل مفرقا ؟ ولم يرد الله عليهم بأن هـذه سنته فى إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم فى قولهم : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ﴾ (٧ – الفرقان)

بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ ٢٠ – الفرقان . وكما رد عليهم فى قولهم : ﴿ أبعث الله بشراً رسولا ﴾ ٩٤ – الإسراء . بقوله : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ (٩٥– الإسراء) . وقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ (٧ – الأنبياء) . بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة فى تنزيل القرآن الكريم منجما بقوله : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ﴾ . أى كذلك أنزل مفرقا لحكمة هى تقوية قلب رسول الله ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾ أى قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض ، و

بيناه تبيينا : فإن إنزاله مفرقا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبت . والذى استقرىء من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل ، وقد صح نزول العشر آيات فى قصة الإفك جملة ، وصح نزول عشر آيات فى أول المؤمنين جملة ، وصح نزول « غير أولى الضرر » وحدها وإليك

حكمة نزول القرآن منجما

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجما من النصوص الواردة فى ذلك . ونجملها فيما يأتى :

١ — الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ :

لقد وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته إلى الناس . فوجد منهم نفوراً وقسوة ، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة وجبلوا على العناد يتعرضون له بصنوف الأذى والعنت ، مع رغبته الصادقة فى إبلاغهم الخير الذى يحمله إليهم حتى قال الله فيه : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٦ — الكهف) فكان الوحى يتنزل على رسول الله صلى الله عليه

وسلم فترة بعد فترة ، بما يثبت قلبه على الحق ، ويشد عزمه للمضى قدما فى طريق دعوته ، لا يبالى بظلمات الجهالة التى يواجهها من قومه ، فإنها سحابة صيف عما قريب تقشع .

ويبين الله له سننه فى الأنبياء السابقين الذين كُذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله ، وأن قومهم لم يكذبوه إلا علوا واستكبارا ، فيجد عليه الصلاة والسلام فى ذلك السنة الإلهية فى موكب النبوة عبر التاريخ التى يتأسى بها تسلية له عند أذى قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون • ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ (٣٣ ، ٣٤ – الأنعام) .

(فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) (١٨٤ – آل عمران) .

ويأمره القرآن بالصبر كما صبر الرسل من قبله ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ (٣٥ – الأحقاف) .

ويطمئن نفسه بما تكفل الله به من كفايته أمر المكذبين

﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ، وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ﴾(١٠ ، ١١ — المزمل) .

وهـــذا هو ما جاء فى حكمة قصص الأنبياء بالقرآن ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾(١٢٠ — هود) .

وكلما اشتد ألم رسول الله صلى الله عليه وسلم لتكذيب قومه ، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعما وتسلية له ، يهدد المكذبين بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ما كان منهم ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ (٧٥ — يونس) .

﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا إنه هو السميع العليم ﴾ (٦٥ — يونس) .

كما يبشره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنصر ﴿والله يعصمك من الناس ﴾ (٦٧ — المائدة) . وينصرك الله نصراً عزيزاً (٣ — الفتح) . ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ٢١ — المجادلة .

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تباعا تسلية له بعد تسلية ، وعزاء بعد عزاء ، حتى

لا يأخذ منـــه الحزن مأخذه ، ولا يستبد به الأسى ، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلا ، فله فى قصص الأنبياء أسوة ، وفى مصير المكذبين سلوى ، وفى العدة بالنصر بشرى ، وكلما عرض له شىء عن الحزن بمقتضى الطبع البشرى تكررت التسلية ، فثبت قلبه على دعوته واطمأن إلى النصر .

وهذه الحكمة هى التى رد الله بهـــا على اعتراض الكفار فى تنجيم القرآن بقوله تعالى : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيـلا ﴾ (٣٢ — الفرقان) .

قال أبو شامه : « فإن قيل : ما السر فى نزوله منجما ؟ وهلا أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلت هذا سـؤال قد تولى الله جوابه ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ يعنون : كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم تعـالى بقوله ﴿ كذلك ﴾ أى أنزلناه مفرقا ﴿ لنثبت به فؤادك ﴾ أى لتقوى به قلبـك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل اليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به وبمـا معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه

العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان لكثرة لقياه جبريل».

٢ — الحكمة الثانية التحدى والإعجاز .

فالمشركون تمادوا فى غيهم ، وبالغوا فى عتوهم ، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله فى نبوته ، ويسوقون له عن ذلك كل عجيب من باطلهم ، كعلم الساعة ﴿ ويسألونك عن الساعة ﴾ (١٨٧ — الأعراف) .

واستعجال العذاب ﴿ويستعجلونك بالعذاب ﴾ ٤٧ — الحج .

فينزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم ، وبما هو أوضح معنى فى مؤدى أسئلتهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ (٣٣ — الفرقان) . أى ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق ، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التى هى مثل فى البطلان وحيث عجبوا من نزول القرآن منجما بين الله لهم الحق فى ذلك ؟ فإن تحديهم به مفرقا مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل فى الإعجاز ، وأبلغ فى الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم : جيئوا بمثله ، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أى لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا

أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا وبما هو أبين معنى فى إعجازهم ، وذلك بنزوله مفرقا ، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات فى حديث ابن عباس عن نزول القرآن « فكان المشركون إذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا[١] ».

٣ — الحكمة الثالثة : تيسير حفظه وفهمه .

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، سجلها ذاكرة حافظة ، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدون ، ثم تحفظ وتفهم قال تعالى ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٢ — الجمعة) . وقال

﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ (١٥٧ — الأعراف) . فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته ، فكان نزوله مفرقا خير عون لها على حفظه فى صدورها وفهم آياته ، كلما نزلت الآية

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس .

أو الآيات حفظها الصحابة وتدبروا معانيها ، ووقفوا عند أحكامها . واستمر هذا منهجاً للتعليم فى حياة التابعين ، عن أبى نضرة قال : « كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا بالقرآن خمس آيات بالغداة ، وخمس آيات بالعشى ، ويخبر أن جبريل نزل القرآن خمس آيات خمس آيات[1] » . وعن خالد بن دينار قال : « قال لنا أبو العالية : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبى ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً[2] » وعن عمر قال : « تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ﷺ خمساً خمساً[3] ».

٤ — الحكمة الرابعة : مسايرة الحوادث والتدرج فى التشريع . فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عالجهم بحكمة ، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطبون بها عن الفساد والرذيلة : وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلى لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى ، ويضع لهم أصوله

(١) أخرجه ابن عساكر .

(٢) أخرجه البيهقى .

(٣) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان .

التشريع حسب المقتضيات أصلا بعد آخر فكان هذا طباً لقلوبهم.

لقد كان القرآن الكريم بادىء ذى بدء يتناول أصول الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين حتى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنية ويغرس فيها عقيدة الإسلام .

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق التى تزكو بها النفس ويستقيم عوجها ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ليقتلع جذور الفساد والشر . ويبين قواعد الحلال والحرام التى يقوم عليها صرح الدين ، وترسو دعائمه فى المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدماء .

ثم تدرج التشريع بالأمة فى علاج ما تأصل فى النفوس من أمراض اجتماعية . بعد أن شرع لهم من فرائض الدين وأوكان الإسلام مايجعل قلوبهم عامرة بالإيمان . خالصة لله ، تعبده وحده لا شريك له .

كما كان القرآن يتنزل وفق الحوادث التي تمر بالمسلمين فى جهادهم الطويل لإعلاء كلمة الله .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنيه وقواعد تشريعه .

ففى مكة شرعت الصلاة ، وشرع الأصل العام للزكاة مقارنا بالربا ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (٣٨ ، ٣٩ — الروم) .

ونزلت سورة الأنعام — وهى مكية — تبين أصول الإيمان ، وأدلة التوحيد وتندد بالشرك والمشركين ، وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم ، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدماء والأعراض : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم

يوصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ آية (١٥١ ، ١٥٢ الأنعام) .

ثم نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام .

فأصول للمعاملات المدنية نزلت بمكة ، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة كآية المداينة وآيات تحريم الربا .

وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة ، أما بيان حقوق كل من الزوجين وواجبات الحياة الزوجية ، وما يترتب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق ، أو انتهائها بالموت ثم الإرث — أما بيان هذا فقد جاء فى التشريع المدنى .

وأصل الزنى حرم بمكة : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ ٣٢ — الإسراء . ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة : ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ (٣٣ — الإسراء) . ولكن تفصيل عقوباتها فى الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة .

وأوضح مثال لذلك التدرج فى التشريع تحريم الخمر .

فقد نزل قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب

تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ (٦٧ — النحل) . فى مقام الامتنان بنعمه سبحانه — وإذا كان المراد بالسكر ما يسكر من الخمر ، وبالرزق ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب — وهذا ما عليه جمهور المفسرين — فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السكر يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ٢١٩ — البقرة فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أو يترتب على الاتجار بها من ربح ، ومضارها فى إثم تعاطيها وما ينشأ عنه من ضرر فى الجسم ، وفساد فى العقل ، وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان ، ونفرت الآية منها بترجيح المضار على المنافع .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ٤٣ — النساء . فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة ، حيث جاء

النهى عن قربان الصلاة فى حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا مايقولونه فى صلاتهم .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ ؟(٩٠ ، ٩١ — المائدة) . أى فانتهوا فالاستفهام بمعنى النهى فكان هذا تحريما قاطعا للخمر فى الأوقات كلها .

ويوضح هذه الحكمة ماروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء « لا تشربوا الخمر » لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل « لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنى أبداً » .

وهكذا كان التدريج فى تربية الأمة وفق ما يجرى بها من الأحداث فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته فى أسرى بدر ، فقال عمر : اضرب أعناقهم ، وقال أبو بكر : نرى أن تعفو عنهم

وأن تقبل منهم الفداء ، فأخذ رسول الله ﷺ برأى أبى بكر فنزل قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبىّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (٦٧ ، ٦٨ — الأنفال) .

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حنين حتى قال رجل : لن نغلب اليوم من قلة ، فتلقوا درسا قاسيا فى ذلك ، ونزل قوله تعالى : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ (٢٥ ، ٢٧ — التوبة) .

ولما توفى عبد الله بن أبىّ — رأس المنافقين — « دعا رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قال عمر : أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل كذا وكذا ، والقائل كذا

وكذا ؟ يعدد أيامه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ثم قال له إني قد خيرت ، قد قيل لي : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ ٨٠ — التوبة . فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه . قال عمر : فعجبت لي وبجرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ الآيات(٨٤ ، ٨٥ التوبة) .

فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

٥ — الحكمة الخامسة : الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد : فهذا القرآن الذى نزل منجما على رسول الله ﷺ فى أكثر من عشرين عاما تنزل الآية أو الآيات على فترات يقرؤه الإنسان فيجده محكم النسج دقيق السبك مترابط المعانى رصين الأسلوب متناسق الآيات والسور كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يعهد له مثيل فى كلام البشر . قال : ﴿ كتاب

أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ ١ - هود ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل فى مناسبات وأحداث لوقع فيه التفكك والانفصام واستحال أن يكون بينه هذا التوافق والانسجام ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (٢ - سورة النساء). وأحاديث الرسول ﷺ وهى فى ذروة البلاغة والفصاحة بعد القرآن لا تنتظم حباتها فى كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض بمثل ما عليه القرآن . والله أعلم .

أسباب النزول

قد نزل القرآن ليهدى الإنسانية إلى المحجة الواضحة، ويرشدها إلى الطريق المستقيم ، ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التى تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته ، ويقرر أحوال الماضى ، ووقائع الحاضر ، وأخبار المستقبل .

وأكثر القرآن نزل ابتداء لهذه الأهداف العامة . . ولكن الصحابة رضى الله عنهم فى حياتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد شاهدوا أحداث السيرة ، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه ، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه ، فيتنزل القرآن لذلك الحادث ، أو لهذا السؤال الطارىء ، ومثل هذا يعرف بأسباب النزول .

عناية العلماء به :

وقد اعتنى الباحثون فى علوم القرآن بمعرفة سبب النزول ، ولمسوا شدة الحاجة إليه فى تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف ، ومن أشهرهم : « على بن المدينى » شيخ البخارى ،

ثم « الواحدى[١] » فى كـ ـه ـسـ باب النزول ، ثم « الجعبرى[١] » الذى اختصر كتاب « الواحدى » فاختصره بحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئاً ، ثم شيخ الإسلام « ابن حجر[٢] » الذى ألف كتاباً فى أسباب النزول اطلع السيوطى على جزء من مسورته ولم يتيسر له الوقوف عليه كاملا ، ثم « السيوطى[٣] » الذى قال عن نفسه : « وقد ألفت فيه كتاباً حافلا موجزاً محرراً لم يؤلف مثله فى هذا النوع : سميته « لباب المنقول فى أسباب النزول[٤] » .

ما يعتمد عليه فى معرفة سبب النزول

والعلماء يعتمدون فى معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة ، فإن إخبار

---

(١) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر ، كان له عناية بعلوم القرآن ، فألف « روضة الطرائف فى رسم المصاحف » و « كنز المعانى » ، وهو شرح الشاطبية فى القراءات ، توفى سنة ٧٣٢ هجرية .

(٢) هو ابو الفضل شهاب الدين الحافظ ابن حجر العسقلانى واسمه أحمد بن على ، ينسب إلى عسقلان بفلسطين كان له عناية بالحديث واشتهر بعلومه ، وكتبه عماد فى هذا الفن — توفى سنة ٨٥٢ هجرية .

(٣) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية .

(٤) انظر الاتقان صفحة ١/٢٨ .

الصحابى عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأى ، بل يكون له حكم المرفوع قال الواحدى : « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدوا فى الطلب فيها » . وهذا هو نهج علماء السلف ، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً فى ذلك دون تثبت ، قال « محمد بن سيرين[1] » « سألت «عبيدة» عن آية من القرآن فقال : اتق الله وقل سدادا ، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن » وهو يعنى الصحابة . وإذا كان هذا هو قول « ابن سيرين » من أعلام علماء التابعين تحرياً للرواية ، ودقة فى الفصل ، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة . ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما روى من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند ، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول .

وذهب « السيوطى » إلى أن قول التابعى إذا كان صريحاً فى سبب النزول فإنه يقبل ، ويكون مرسلا ، إذا صح المسند إليه

---

(١) تابعى من علماء البصرة ، اشتهر بعلوم الحديث ، وتعبير الرؤيا ، وتوفى سنة ١١٠ هجرية .

وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، واعتضد بمرسل آخر[1] » .

وقد أخذ « الواحدى » على علماء عصره تساهلهم فى رواية سبب النزول ، ورماهم بالإفك والكذب ، وحذرهم من الوعيد الشديد ، حيث يقول : « أما اليوم فكل أحد يخترع شيئا ، ويختلق إفكا وكذبا ، ملقيا زمامه إلى الجهالة ، غير مفكر فى الوعيد للجاهل بسبب الآية »[2] .

تعريف السبب

وسبب النزول بعد هذا التحقيق يكون قاصراً على أمرين :

١ — أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها ، وذلك كالذى روى عن ابن عباس قال : « لما نزلت ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه . فاجتمعوا إليه ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ قالوا ماجربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب

(١) انظر الاتقان ٣١/ ١ .

(٢) الآية ٢١٤ الشعراء .

شديد ؟ فقال أبو لهب[٢] : تباً لك ، إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت هذه السورة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ .

٢ — أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه ، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عند ما ظاهر[٢] منها زوجها أوس بن الصامت ، فذهبت تشتكي من ذلك . عن عائشة قالت : « تبارك الذي وسع سمعه كل شيء » إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تقول : يارسول الله ، أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ! اللهم إني أشكو إليك ، قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ وهو أوس بن الصامت[٣] » .

---

(١) اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .

(٢) أخرجه بخاري ومسلم وغيرها .

(٣) الظهار : أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، واختلفوا في غير هذه الصيغة .

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن أبي حاتم — والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي — .

ولا يعنى هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً ، فإن القرآن لم يكن نزوله وقفا على الحوادث والوقائع ، أو على السؤال والاستفسار ، بل كان القرآن يتنزل إبتداء ، بعقائد الإيمان ، وواجبات الإسلام وشرائع الله تعالى فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، قال الجعبرى : « نزل القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء ، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال[1] » .

ولذا يعرف سبب النزول بما يأتى :

هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال .

ومن الإفراط فى علم سبب النزول أن نتوسع فيه ، ونجعل منه ماهو من قبيل الأخبار عن الأحوال الماضية ، والوقائع الغابرة ، قال « السيوطى » والذى يتحرر فى سبب النزول أنه مانزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ماذكره الواحدى فى تفسيره فى سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول فى شىء ، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذلك ذكره فى قوله :

(١) انظر الاتقان ٢٨ / ١ .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا[٢] ﴾ سبب اتخاذه خليلا ، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى[١] » .

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها :

(أ) بيان الحكمة التى دعت إلى تشريع حكم من الأحكام ، وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة فى علاج الحوادث رحمة بالأمة .

(ب) تخصيص حكم ما نزل إن كان بصيغة العموم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ ، وهى مسألة خلافية سيأتى لها مزيد من الإيضاح ، وقد يمثل لهذا بقوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ ١٨٨ — آل عمران .

« فقد روى أن مروان قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن

---

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم — والحاكم وصححه ، وابن مردوية .

(١) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير ، وتفسير ابن كثير) .

عباس فقل : لئن كان كل امرىء منا أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل يعذب لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ، إنما نزلت فى أهل الكتاب . ثم تلا : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ ١٨٧ — آل عمران ، الآية قال ابن عباس : سألهم رسول الله ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخذوا بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه » .

(ج) إذا كان لفظ ما نزل عاماً وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تقتصر التخصيص على ما عدا صورته ، ولا يصح إخراجها . لأن دخول صورة السبب فى اللفظ العام قطعى ، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظنى ، وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يمثل لهذا بقوله تعالى : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ ٢٣ — ٢٥ النور . فإن هذه الآية نزلت فى عائشة خاصة ، أو فيها وفى سائر أزواج

النبي ﷺ ، « عن ابن عباس في قوله : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات ﴾ الآية : نزلت في عائشة خاصة[١] » وعن ابن عباس في هذه الآية أيضاً « هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ ، ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة — ثم قرأ : ﴿ والذين يرمون المحصنات ... إلى قوله ... إلا الذين تابوا ﴾ ٤ ، ٥ - النور[٢] .

وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كان مخصصا لعموم قوله تعالى : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ . لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة ، أو قذف سائر أزواج النبي ﷺ ، فإن هذا لا توبة له ، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي .

(د) ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن ، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يعرف سبب نزولها ، قال : « الواحدي » لا يمكن معرفة تفسير

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم - والحاكم وصححه ، وابن مردويه .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن جرير والطبراني وابن مردويه (راجع تفسير ابن جرير ، وتفسير ابن كثير) .

الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ، قال « ابن دقيق العيد » « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » وقال « ابن تيمية » « ومعرفة سبب النزول . يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب[(١)] » ومن أمثلة ذلك : ما أشكل على مروان بن الحكم فى فهم الآية الآنفة الذكر ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم ﴾ ١٨٨ — آل عمران . حتى أورد له ابن عباس سبب النزول ومثله آية : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ ١٥٨— البقرة . فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضى أن السعى فرض ، لأن الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب ، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكا بالظاهر[(٢)] ، وقد ردت عائشة على عروة ابن الزبير فى فهمه ذلك بما ورد فى سبب نزولها ، وهو أن الصحابة

---

(١) انظر الإتقان ص/٢٨.

(٢) حكى الزمخشرى فى الكشاف عن أبى حنيفة أنه يقول : إن السعى واجب وليس بركن وعلى تاركه دم - وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين .

تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية ، حيث كان على الصفا إساف ، وعلى المروة نائلة ، وهما صنمان ، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوها « عن عائشة أن عروة قال لها : أرأيت قول الله: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ ؟ فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : بئسما قلت يا إبن أختى ، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها إنما أنزلت ، إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية ، فأنزل الله ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ الآية قالت عائشة : ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما »[1] .

(هـ) ويوضح سبب النزول من نزلت فيه الآية حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة والتعامل . كالذى ذكر فى قوله تعالى : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت

---

(١) أخرجه الشيخان وغيرهما .

القرون عن قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (١٧ الأحقاف) فقد أراد « معاوية » أن يستخلف « يزيد » وكتب إلى « مروان » على المدينة بذلك ، فجمع الناس وخطبهم ودعاهم إلى بيعة « يزيد » فأبى عبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايع ، فأراده « مروان » بسوء لولا أن دخل بيت عائشة ، وقال مروان : إن هذا الذى أنزل الله فيه ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ﴾ فردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها ، « عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر شيئاً ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا أنزل فيه ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما ﴾ فقالت عائشة : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى » [1] وفى بعض الروايات « أن مروان لما طلب البيعة

---

(١) أخرجه البخارى

ليزيد قال : سنة أبي بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان ، هذا الذى قال الله فيه ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية ، فبلغ ذلك عائشة فقالت كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته » [١] .

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا اتفق ما نزل مع السبب فى العموم ، أو اتفق معه فى الخصوص ، حمل العام على عمومه ، والخاص على خصوصه .

ومثال الأول قوله تعالى ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (٢٢٢ البقرة) عن أنس قال : « إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد والنسائى وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد ، قال لما بايع مروان لابنه قال مروان الخ ..

جامعوهن فى البيوت ، واصنعوا كل شىء إلا النكاح [١] .

ومثال الثانى قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾ (١٧ – ٢١ الليل) فإنها نزلت فى أبى بكر ، والأتقى أفعل تفضيل مقرون بأل العهدية فيختص بمن نزل فيه ، وإنما تفيد أل العموم إذا كانت موصولة أو معرفة من جمع على الراجح وأل فى الأتقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل ، والأتقى ليس جمعاً ، بل هو مفرد ، والعهد موجود لا سيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز ، وذلك كاف فى قصر الآية على من نزلت فيه ، ولذا قال الواحدى : الأتقى أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين ، « عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله : بلال ، وعامر ابن فهيرة ، والنهدية وابنتها ، وأم عيسى ، وأمة بنى المؤمل وفيه نزلت ، ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ إلى آخر السورة » [٢] .

---

(١) أخرجه مسلم وأهل السنن وغيرهم

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم

وروى نحوه عن عامر بن عبد الله بن الزبير وزاد فيه: فنزلت فيه هذه الآية ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ إلى قوله ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى [١] ﴾ .

أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت بصيغة العموم فقد اختلف الأصوليون : أتكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ؟

١ — فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟ .

فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال ابن أمية زوجته « فعن ابن عباس » أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء . فقال النبى ﷺ البينة وإلا حد فى ظهرك ، فقال : يا رسول الله : إن رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول البينة وإلا حد فى ظهرك، فقال هلال: والذى بعثك بالحق إنى

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه

لصادق ، ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد ، ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ (٦ — ٩ — النور [1] . . . فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر .

وهذا هو الرأى الراجح والأصح ، وهو الذى يتفق مع عموم أحكام الشريعة ، والذى سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها . كنزول آية الظهار فى أوس بن الصامت ، أو سلمة بن صخر — على اختلاف الروايات فى ذلك ، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم ، قال ابن تيمية : « قد يجىء هذا كثيراً ومن هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت فى كذا ، لاسيما إن كان المذكور شخصا كقولهم : إن آية الظهار نزلت فى امرأة ﴿ وأن احكم بينهم ﴾ [2] نزلت فى بنى قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود

---

(١) أخرجه البخارى والترمذى وابن ماجه .
(٢) الآية ٤٩ — المائدة .

والنصارى، أو فى قوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية تختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الاطلاق ، والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين . وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، والآية التى لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ، وإن خبراً يمدح أو يذم فهى متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته .

وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ فاللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص . ولا بد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه ، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة ويتطابق السبب والمسبب تطابق السؤال والجواب .

صيغة سبب النزول :

لسبب النزول صيغتان لأنها إما أن تكون نصاً صريحاً فى السببية ، وإما أن تكون محتملة .

فتكون نصاً صريحاً فى السببية إذا قال الراوى « سبب نزول هذه الآية كذا » أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال كما إذا قال «حدث كذا» أو سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت الآية فهاتان صيغتان صريحتان فى السببية وسيأتى لهما الأمثلة .

وأما الاحتمال يعنى تكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام مثل قول الراوى « نزلت هذه الآية فى كذا » فذلك يراد به تارة سبب النزول . ويراد به تارة أنه داخل فى معنى الآية . وكذلك إذا قال أحسب هذه الآية نزلت فى كذا أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى كذا . فإن الراوى بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب . ومثال الصيغة الأولى ماروى أن ابن عمر رضى الله عنه قال أنزلت (نساؤكم حرث لكم) الآية فى إتيان النساء فى أدبارهن .

ومثال الصيغة الثانية ما روى عن عبد الله بن الزبير « أن الزبير خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدراً مع النبى ﷺ إلى رسول الله ﷺ فى شراجٍ من الحرة . وكانا يسقيان به كلاهما النخل . فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه . فقال رسول

الله ﷺ « اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصارى. وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر » ثم أرسل الماء إلى جارك . واستوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة للأنصارى . فلما أحفظ رسول الله الأنصارى استوفى للزبير حقه فى صريح الحكم . فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية ٦٥ من سورة النساء . قال ابن تيمية قولهم نزلت هذه الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى نزلت هذه الآية فى كذا هل يجرى مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذى نزلت لأجله أو يجرى مجرى التفسير منه .

فالبخارى يدخله فى المسند وغيره لا يدخله وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت الآية عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا المسند .

وقال الزركشى فى البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب فى نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع والله أعلم .

فصل فيما أنزل من القرآن

على لسان بعض الصحابة رضى الله عنهم

والأصل فى هذا الباب الآيات التى جاءت موافقة لرأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . قال ابن عمر وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر وأخرجه بن مردويه ، عن مجاهد ، قال : كان عمر يرى الرأى ، فينزل به القرآن .

وأخرج البخارى وغيره ، عن أنس ، قال ، قال عمر : وافقت ربى فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلوا أمرتهن

أن يحتجبن ؟ فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة ، فقلت لهن ﴿ عسى ربك إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ فنزلت كذلك .

وأخرج مسلم عن ابن عمر ، عن عمر ، قال : وافقت ربى فى ثلاث : فى الحجاب ، وفى أسارى بدر ، وفى مقام إبراهيم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس ، قال : قال عمر : وافقت ربى — أو وافقنى ربى — فى أربع ، فنزلت هذه الآية :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية، فلما نزلت قلت أنا « فتبارك الله أحسن الخالقين » فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وأخرج عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهودياً لقى عمر بن الخطاب ، فقال : إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا ، فقال عمر : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ قال : فنزلت على لسان عمر .

وأخرج سنيد فى تفسيره ، عن سعيد بن جبير ، أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل فى أمر عائشة قال : « سبحانك هذا بهتان عظيم » فنزلت كذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن عكرمة ، قال: لما أبطأعلى النساء الخبر فى أحد خرجن يستخبرن ، فإذا رجلان مقبلان على بعير ، فقالت امرأة : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قال : ﷺ قالت : فلا أبالى ، يتخذ الله من عباده الشهداء فنزل القرآن على ما قالت ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ وقال ابن سعد فى الطبقات. أخبرنا الواقدى، حدثنى إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدرى ، عن أبيه ، قال : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد ، فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ ثم قطعت يده اليسرى ، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره ، وهو يقول « وما محمد إلا رسول . . . » الآية ، ثم قتل فسقط اللواء .

قال محمد بن شرحبيل : وما نزلت هذه الآية : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد ذلك ويقرب من هذا ما ورد فى القرآن على لسان غير الله عز وجل : كالنبي عليه الصلاة والسلام وجبريل والملائكة غير مصرح باضافته إليهم ولا محكى بالقول كقوله تعالى ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم . . . ﴾ الآية فان هذا ورد على لسانه ﷺ لقوله بآخر الآية ١٠٤ من سورة الأنعام

﴿ وما أنا عليكم ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ آية ١١٤ الأنعام فانه أوردها أيضا على لسانه وكذا ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ آية ٦٤ سورة مريم فانها واردة على لسان جبريل وقوله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم .٠. وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ فذلك وارد على لسان الملائكة ثم قوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فوارد على لسان العباد إلا أنه هنا يمكن تقدير القول أى قولوا وكذا الآيتان الأوليان يصح أن تقدر فيها قل بخلاف الثالثة والرابعة فلا يقدر فيها والله أعلم .

فصل فيما تكرر نزوله

صرح جماعة من المتقدمين والمتأخرين ، بأن من القرآن ما تكرر نزوله ، قال ابن الحصاد : قد يتكرر نزول الآية تذكيراً وموعظة ، وذكر من ذلك خواتيم سورة النحل ، وأول سورة الروم .

وذكر ابن كثير منه آية الروح . وذكر قوم منه الفاتحة . وذكر بعضهم منه قوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ﴾ الآية . وقال الزركشي فى البرهان : قد ينزل الشيء مرتين تعظيماً

لشأنه ، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه . ثم ذكر منه آية الروح ، وقوله : ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار .... ﴾ الآية .

قال : فإن سورة الإسراء وهود مكيتان ، وسبب نزولهما يدل على أنهما نزلتا بالمدينة ولهذا أشكل ذلك على بعضهم .

ولا إشكال ، لأنها نزلت مرة بعد مرة . قال : وكذلك ما ورد في سورة الاخلاص من أنها جواب للمشركين بمكة ، وجواب لأهل الكتاب بالمدينة ، وكذلك قوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا .... ﴾ الآية . قال . والحكمة في هذا كله أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية ، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها فيوحى إلى النبي ﷺ تلك الآية بعينها ، تذكيراً لهم بها وبأنها تتضمن هذه .

تنبيه

وقد يجعل من ذلك : الأحرف التي تقرأ على وجهين فأكثر ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث أبي « أن ربي أرسل إلى أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه : أن هون على أمتي فأرسل إلى أن اقرأه على حرفين ، فرددت إليه : أن هون على

(١) من سورة هود (٢) من سورة التوبة

أمتى ، فأرسل إلى أن اقرأه على سبعة أحرف » ، فهذا الحديث يدل على أن القرآن لم ينزل من أول وهلة ، بل مرة بعد أخرى .

وفى جمال القراء للسخاوى بعد أن حكى القول بنزول الفاتحة مرتين . إن قيل : فما فائدة نزولها مرة ثانية ؟ .

قلت : يجوز أن يكون نزلت أول مرة على حرف واحد ونزلت فى الثانية ببقية وجوهها ، نحو ملك ومالك والسراط والصراط ونحو ذلك ، انتهى .

تنبيـــه

قد أنكر بعضهم كون شيء من القرآن يتكرر نزوله، كذا رأيته فى كتاب « الكفيل بمعانى التنزيل » وعلله بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه ، وهو مردود بما تقدم من فوائده وبأنه يلزم أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى فإن جبريل كان يعارضه القرآن كل سنة ، ورد بمنع الملازمة وبأنه لا معنى للانزال إلا أن جبريل كان ينزل على رسول الله ﷺ بقرآن لم يكن نزل به من قبل ، فيقرئه إياه ، ورد بمنع اشتراطه قوله :

«لم يكن نزل به من قبل» ثم قال : ولعلهم يعنون بنزولها مرتين أن جبريل نزل حين حولت القبلة ، فأخبر الرسول ﷺ أن الفاتحة ركن فى الصلاة كما كانت بمكة ، فظن ذلك نزولا لها مرة أخرى ، أو أقرأه فيها قراءة أخرى لم يقرئها له بمكة فظن ذلك إنزالا . انتهى .

ما تأخر حكمه عن نزوله

وما تأخر نزوله عن حكمه

قال الزركشى فى البرهان : قد يكون النزول سابقاً على الحكم ، كقوله ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾ فقد روى البيهقى وغيره عن ابن عمر أنها نزلت فى زكاة الفطر وأخرج البزار نحوه مرفوعاً .

وقال بعضهم : لا أدرى ماوجه هذا التأويل ؟ لأن السورة مكية ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة ولا صوم ، وأجاب البغوى بأنه يجوز أن يكون النزول سابقا على الحكم ، كما قال : ﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد ﴾ فالسورة مكية ، وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكة ، حتى قال عليه السلام (أحلت

إلى ساعة من نهار) ، وكذلك نزل بمكة : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ قال عمر بن الخطاب فقلت : أى جمع ؟ فلما كان يوم بدر، وانهزمت قريش نظرت إلى رسول ﷺ فى آثارهم مصلتا بالسيف ويقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فكانت يوم بدر . أخرجه الطبرانى فى الاوسط .

وكذلك قوله ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ قال قتادة : وعده الله وهو يومئذ بمكة أنه سيهزم جنداً من المشركين فجاء تأويلها يوم بدر . أخرجه ابن أبى حاتم .

ومثله أيضا قوله تعالى : ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ قل جاء الحق ﴾ قال : السيف : والآية مكية متقدمة على فرض القتال ، ويؤيد تفسير ابن مسعود ما أخرجه الشيخان من حديثه أيضا ، قال : دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا ، فجعل يطعنها بعود كان فى يده ، ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ ﴿ جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد ﴾ .

وقال ابن الحصار : ذكر الله الزكاة فى السور المكيات كثيراً ، تصريحاً وتعريضا ، بأن الله سينجز وعده لرسوله ، ويقيم دينه ويظهره ، حتى تفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف ، وأورد من ذلك قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ وقوله فى سورة المزمل : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ . ومن ذلك قوله فيها : ﴿ وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ فقد قالت عائشة وابن عمر وعكرمة وجماعة : إنها نزلت فى المؤذنين ، والآية مكية ولم يشرع الأذان إلا بالمدينة .

ومن أمثلة ما تأخر نزوله عن حكمة آية الوضوء ، ففى صحيح البخارى عن عائشة قالت : « سقطت قلادة لى بالبيداء ، ونحن داخلون المدينة ، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه فى حجرى راقداً ، وأقبل أبو بكر ، فلكزنى لكزة شديدة وقال : حبست الناس فى قلادة ! ثم أن النبى ﷺ استيقظ ، وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ، فالآية إجماعا

مدنية ، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة .

قال ابن عبد البر : معلوم عند جميع أهل المغازي أنه ﷺ لم يصل منذ فرضت الصلاة إلا بوضوء ولا يدافع ذلك إلا جاهل أو معاند . قال : والحكمة في نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به، ليكون فرضه متلواً بالتنزيل .

وقال غيره : يحتمل أن يكون أول الآية نزل مقدما مع فرض الوضوء ، ثم نزل بقيتها وهو ذكر التيمم في هذه القصة .

قلت يرده الاجماع على أن الآية مدنية .

ومن أمثلته أيضا آية الجمعة ، فإنها مدنية والجمعة فرضت بمكة،

وقول ابن الفرس : إن إقامة الجمعة لم تكن بمكة قط يرده ما أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ،قال : كنت قائد أبي حين ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة ، فسمع الأذان يستغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة ، فقلت : يا أبتاه أرأيت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة لم هذا ؟ قال : أي بني ، كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ من مكة .

ومن أمثلته قوله تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ فإنها نزلت

سنة تسع ، وقد فرضت الزكاة قبلها فى أوائل الهجرة .

قال ابن الحصار : فقد يكون مصرفها قبل ذلك معلوما ، ولم يكن فيه قرآن متلو ، كما كان الوضوء معلوما قبل نزول الآية ثم نزلت تلاوة القرآن تأكيداً به .

النوع الثالث عشر

ما نزل مفرقا وما نزل جمعا

الأول غالب القرآن ، ومن أمثلته فى السور القصار ﴿ اقرأ ﴾ أول ما نزل منها إلى قوله : ﴿ ما لم يعلم ﴾ ، والضحى أول ما نزل منها إلى قوله : ﴿ فترضى ﴾ كما فى حديث الطبرانى .

ومن أمثلته الثانى سورة الفاتحة ، والاخلاص ، والكوثر ، وتبت ، ولم يكن ، والنصر ، والمعوذتان ، ونزلتا معا . ومنه فى السور الطوال المرسلات ، ففى المستدرك عن ابن مسعود ، قال : كنا مع النبى ﷺ فى غار ، فنزلت عليه : ﴿ والمرسلات عرفا ﴾ ، فأخذتها من فيه وإن فاه رطب بها ، فلا أدرى بأيها ختم : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ ، أو ﴿ إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾

ومنه سورة الصف لحديثها السابق فى النوع الأول .

ومنه سورة الأنعام ، فقد أخرج أبو عبيد والطبرانى عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة ، وحولها سبعون ألف ملك .

وأخرج الطبرانى من طريق يوسف بن عطية الصفار — وهو متروك عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك » .

وأخرج عن مجاهد قال « نزلت الأنعام كلها جملة واحدة معها خمسمائة ملك».

وأخرج عن عطاء قال : « أنزلت الأنعام جميعا ومعها سبعون ألف ملك» فهذه شواهد يقوى بعضها بعضا .

وقيل إن الحديث الوارد فى أنها نزلت جملة واحدة فى إسناده ضعف وقد روى ما يخالفه فروى أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا فى عددها فقيل ثلاث وقيل غير ذلك انتهى .

فصل فى عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه

أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به ، وقيل وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة . وقد أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال : الأنفال وبراءة سورة واحدة .

وأخرج عن أبى رجاء قال : سألت الحسن عن الأنفال وبراءة : سورتان أم سورة ؟ قال : سورتان . ونقل مثل قول أبى روق عن مجاهد وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان .

وأخرج ابن أشتة ، عن ابن لهيعة ، قال يقولون : إن براءة من يسألونك[1] وإنما لم تكتب فى أول براءة « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنها من « يسألونك » وشبهتهم إشتباه الطرفين وعدم البسملة : ويرده تسمية النبى ﷺ كلا منهما .

ونقل صاحب الإقناع ، أن البسملة ثابتة لبراءة فى مصحف ابن مسعود ، قال ولا يؤخذ بهذا .

قال القشيرى : والصحيح أن التسمية لم تكن فيها لأن جبريل عليه السلام لم ينزل بها فيها . وفى المستدرك عن ابن عباس قال : سألت علـى بن أبى طالب : لم لم تكتب فى براءة

(١) أى الأنفال .

« بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ قال لأنها (أى البسملة) أمان وبراءة نزلت بالسيف .

وعن مالك أن أولها لما سقط سقط معه البسملة ! فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة فى طولها ، وفى مصحف ابن مسعود مائة وإثنتاعشرة سورة ، لأنه لم يكتب المعوذتين . وفى مصحف أبى ست عشرة ، لأنه كتب فى آخره سورتى الحفد والخلع .

أخرج أبو عبيد عن ابن سيرين ، قال كتب أبى بن كعب فى مصحفه . فاتحة الكتاب والمعوذتين .

وأخرج الطبرانى فى الدعاء من طريق عباد بن يعقوب الأسدى عن يحى بن يعلى الأسلمى ، عن ابن لهيعة ، عن بن هبيرة عن عبد الله بن زُرير الغافقى . قال : قال لى عبد الله ابن مروان : ولقد علمت ما حملت على حب أبى تراب ،إلا أنك أعرابى جاف ، فقلت : والله أعلم لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك ، ولقد علمنى منه على بن أبى طالب سورتين علمهما إياه رسول الله ﷺ ما علمتهما أنت ولا أبوك : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك ولا نكفرك،ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك

ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق .

وأخرج البيهقى عن طريق سفيان الثورى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع . فقال . ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ﴾. ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى نقمتك إن عذابك بالكفار ملحق ﴾ .

قال ابن جريج . حكمة البسملة أنهما سورتان فى مصحف بعض الصحابة ، وأخرج محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة عن أبى بن كعب أنه كان يقنت بالسورتين ، فذكرهما ، وأنه كان يكتبهما فى مصحفه .

وقال ابن الضريس : أنبأنا أحمد بن حنبل المروزى عن عبد الله بن المبارك ، أنبأنا الأجلح عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه ، قال : فى مصحف ابن عباس قراءة أبى وأبى موسى

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك الخير ، ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك

وفيه : اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نخشى عذابك ونرجو رحمتك ، إن عذابك بالكفار ملحق .

وأخرج الطبرانى بسند صحيح ، عن أبى إسحاق ، قال : أمّنا أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، بخراسان ، فقرأ بهاتين السورتين : إنا نستعينك ونستغفرك .

وأخرج البيهقى وأبو داود فى المراسيل عن خالد بن أبى عمران ، أن جبريل نزّل ذلك على النبى ﷺ وهو فى الصلاة مع قوله ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ الآية ، لما قنت يدعو على مضر .

تنبيـــــه

كذا نقل جماعة عن مصحف أبى أنه ست عشرة سورة والصواب أنه خمس عشرة ، فإن سورة الفيل وسورة لإيلاف قريش فيه سورة واحدة ، ونقل ذلك عن السخاوى فى جمال القراء عن جعفر الصادق وأبى نهيك أيضاً .

قلت : ويرده ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانى أن رسول الله ﷺ : قال : « فضل الله قريش لسبع » الحديث

وفيه : « إن الله أنزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم : « لإيلاف قريش »

وفى كامل الهذلى عن بعضهم أنه قال : الضحى وألم نشرح سورة واحدة نقله الإمام الرازى فى تفسيره عن طاوس وعمر بن عبد العزيز .

فائدة

قيل : الحكمة فى تسوير القرآن سوراً تحقيق كون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله، والإشارة إلى أن لكل سورة نمطاً مستقلا ، فسورة يوسف تترجم عن قصته ، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم ، إلى غير ذلك ، وسوّرت السور طوالا وأوساطاً وقصاراً تنبيها على أن الطول ليس من شرط الإعجاز ، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات ، وهى معجزة إعجاز سورة البقرة ثم ظهرت لذلك حكمة فى التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها ، تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه .

قال الزركشى فى البرهان : فإن قلت : فهلا كانت الكتب السابقة كذلك ، قلت : لوجهين أحدهما أنها لم تكن معجزات

من جهة النظم والترتيب ، والآخر أنها تيسيراً للحفظ ، لكن ذكر الزمخشرى ما يخالفه ، فقال فى الكشاف :

والفائدة فى تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة متعددة ، وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور ، وما أوحاه إلى أنبيائه موراً ، وبوب المصنفون فى كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم ، منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً ، ومنها أن القارىء إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ، ثم أخذ فى آخر ، كان أنشط له ، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلا أو فرسخاً ﴿وانتهى إلى رأسى برية﴾ نفس ذلك عنه ، ونشط للسير ، ومن ثم جزىء القرآن أجزاء وأخماسا ، ومنها أن الحافظ إذا حفظ السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها ، فيعظم عنده ماحفظه ومنه حديث أنس : «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا » ومن ثم كانت القراءة فى الصلاة بسورة أفضل ومنها التفصيل بسبب تلاحق الأشكال والنظائر الملائمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحظ المعانى والنظم ، إلى غير ذلك من الفوائد انتهى .

وما ذكره الزمخشرى من تسوير سائر الكتب هو الصحيح أو الصواب ، فقد أخرج ابن أبى حاتم ، عن قتادة ، قال : كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة ، كلها مواعظ وثناء ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ، ولا حدود ، وذكروا أن فى الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال إلى غير ذلك والله أعلم.

فصل فى عد الآى

وقد أفرده جماعة من القراء بالتصنيف ، قال الجعبرى: تعريف الآية أنها قرآن مركب من جمل ولو تقديراً ، ذو مبدأ ومقطع ، مندرج فى سورة ، وأصلها العلامة ، ومنه (إن آية ملكه) لأنها علامة للفضل والصدق أو الجماعة لأنها جماعة الكلمة .

وقال غيره : الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها

وقيل : هى الواحدة من المعدودات فى السور سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها ، وعلى عجز المتحدى بها .

وقيل : لأنها علامة على انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعه مما بعدها . قال الواحدى : وبعض أصحابنا يجوز على هذا القول تسمية أقل من الآية آية ، لولا أن التوقيف ورد بما هى عليه الآن .

وقال أبو عمرو الدانى : لا أعلم كلمة هى وحدها آية إلاقوله : ﴿ مدهامتان ﴾ وقال غيره : بل فيه غيرها مثل : والنجم أو الضحى ، والعصر وكذا فواتح السور عند من عدها .

قال بعضهم الصحيح أن الآية إنما تعلم بتوقيف من الشارع كمعرفة السورة . قال : فالآية طائفة من حروف القرآن علم بالتوقيف انقطاعها ، يعنى عن الكلام الذى بعدها فى أول القرآن ، أو عن الكلام الذى قبلها فى آخر القرآن ، وعما قبلها وما بعدها فى غيرهما . غير مشتمل على مثل ذلك . قال : وبهذا القيد خرجت السورة .

وقال الزمخشرى : الآيات علم توقيفى لا مجال للقياس فيه ، ولذلك عدوا « ألم » آية حيث وقعت ، و « المص » ، ولم يعدوا « المر » و « الر » ، وعدوا « حم » آية فى سورها ، و « طه » و « يس » ، ولم يعدوا (طس) قلت : ومما يدل على أنه توقيفى ما أخرجه أحمد فى مسنده من طريق بن أبى النجود ، عن زر ، عن ابن مسعود ، قال: أقرأنى رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل حم ، قال يعنى الأحقاف قال: وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين ... الحديث .

وقال ابن العربي : ذكر النبي ﷺ أن الفاتحة سبع آيات وسورة الملك ثلاثون آية ، وصح أنه قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران قال : وتعديد الآي من معضلات القرآن ومن الآيات طويل وقصير ، منه ما ينتهي إلى تمام الكلام ومنه ما يكون في أثنائه وقال غيره : سبب اختلاف السلف في عدد الآي أن النبي ﷺ كان يقف على رءوس الآي للتوقيف ، فإذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة .

وقد أخرج ابن الضريس ، من طريق عثمان بن عطاء ، عن أبيه عن ابن عباس قال : جميع آي القرآن ستة آلاف وستمائة آية وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستمائة حرف واحد وسبعون حرفاً ٣٢٣٦٧١ قال الداني : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك ، منهم من لم يزد ، ومنهم من قال : ومائتا آية وأربع آيات وقيل وأربع عشرة ، وقيل : وتسع عشرة ، وقيل : وخمس وعشرون ، وقيل : وست وثلاثون آية .

قلت : أخرج الديلمي في مسند الفردوس ، من طريق الفيض ابن ويثق ، عن فرات ابن سليمان : عن ميمون بن مهران ، عن

ابن عباس مرفوعا : « درج الجنة على قدر آى القرآن ، بكل آية درجة . فتلك ستة آلاف آية ومائتا آية وست عشرة آية بين كل درجين مقدار ما بين السماء والأرض » ولا حرج على فضل الله فهو يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير . والله أعلم .

فصل فيما نزل من القرآن على بعض الأنبياء
وما لم ينزل منه على أحد قبل النبى ﷺ

ولنبدأ بالقسم الذى اختص به النبى ﷺ ولم ينزل على أحد قبله فمن ذلك القسم سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة وأما الفاتحة فأخرج البيهقى فى الشعب من حديث أنس مرفوعا « إن الله أعطانى فيما منّ به علىّ » : إنى أعطيتك فاتحة الكتاب وهى من كنوز عرشى وأما خواتيم سورة البقرة فأخرج أحمد وغيره من حديث عقبة بن عامر مرفوعا : اقرءوا هاتين الآيتين فإن ربى أعطانيهما من تحت عرشه .

وأخرج من حديث حذيفة : أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبى قبلى .

وأما آية الكرسى فتقدمت فى حديث معقل بن يسار .

وأخرج ابن مردوية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ (إذا قرأ آية الكرسى ضحك وقال : إنها من كنز الرحمن تحت العرش :

وأخرج أبو عبيد : عن على قال (آية الكرسى أعطيها نبيكم من كنز تحت العرش ، ولم يعطها أحد قبل نبيكم) .

وروى مسلم عن ابن عباس : أتى النبى صلى الله عليه وسلم ملكا فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة وأخرج الطبرانى عن عقبة بن عامر ، قال : ترددوا فى الآيتين من آخر سورة البقرة (آمن الرسول) إلى خاتمتها . فإن الله اصطفى بها محمداً صلى الله عليه وسلم وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن كعب قال « إن محمداً صلى الله عليه وسلم أعطى أربع آيات لم يعطهن موسى . وإن موسى أعطى آية لم يعطها محمد قال والآيات التى أعطيهن محمد : (لله ما فى السموات وما فى الأرض) حتى ختم البقرة فتلك ثلاث آيات وآية الكرسى : والآية التى أعطيها موسى : « اللهم لا تولج الشيطان فى قلوبنا

وخلصنا منه من أجل أن لك الملكوت والأبد والسلطان والملك والحمد والأرض والسماء الدهر الداهر أبداً أبداً » آمين آمين ،

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس . قال : السبع الطوال لم يعطهن أحد إلا النبي صلى الله عليه وسلم : وأعطى موسى منها اثنتين وأخرج الطبراني عن ابن عباس مرفوعا : أعطيت أمتي شيئا لم يعطه أحد من الأمم عند المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » وهذا من فضل الله على أمتي محمد صلى الله عليه وسلم

وأما القسم الذي نزل منه على بعض الأنبياء فمن أمثلته ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال « لما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال ﷺ : « في صحف إبراهيم وموسى » . فلما نزل (والنجم إذا هوى) فبلغ (وإبراهيم الذي وفى) قال (وفى أن لا تزروا وازرة وزر أخرى) إلى قوله : (هذا نذير من النذر الأولى) .

وقال سعيد بن منصور حدثنا خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن عكرمة عن ابن عباس قال : هذه السورة في صحف

إبراهيم وموسى وأخرج عن السدى قال: « إن هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى مثل ما أنزل على النبي ﷺ .

وأخرج الحاكم من طريق القاسم عن أبي أمامة . قال أنزل الله على ابراهيم مما أنزل على محمد (التائبون العابدون) إلى قوله (وبشر المؤمنين) (وقد أفلح المؤمنون) إلى قوله (فيها خالدون) وإن المسلمين والمسلمات إلى آخر الآية وكذلك قوله تعالى (الذين هم على صلاتهم دائمون إلى قوله (قائمون) في سأل : فلم يف بهذه السهام إلا إبراهيم ومحمد ﷺ .

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال انه . يعني النبي ﷺ الموصوفون في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وحرزاً للأميين . . . . الحديث .

وأخرج ابن الضريسي وغيره عن كعب قال فتحت التوراة بـ « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، وختمت » بالحمد لله الذى لم يتخذوا ولداً ، إلى قوله » وكبره تكبيراً .

وأخرج أيضاً عنه قال : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، وخاتمة التوراة خاتمة هـــود ﴿فأعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ .

وأخرج من وجه آخر عنه قال : أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات من سورة الأنعام ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ إلى آخرها وأخرج أبو عبيد عنه قال : أول ما أنزل فى التوراة عشر آيات من سورة الأنعام ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ قل تعالوا أتل ﴾ الأيات قال بعضهم يعنى أن هذه الأيات اشتملت على الآيات العشر التى كتبها الله لموسى فى التوراة أول ما كتب : وهى توحيد الله والنهى عن الشرك ، واليمين الكاذبة والعقوق والقتل والزنا والسرقة والزور ومد العين إلى ما فى يد الغير والأمر بتعظيم السبت .

وأخرج الدارقطنى من حديث بريده ، أن النبى ﷺ قال : « لأعلمنك آية لم تنزل بعد سليمان على غيرى :

بسم الله الرحمن الرحيم » .

وروى البيهقى عن ابن عباس ، قال : أغفل الناس آية من كتاب الله لم تنزل على أحد قبل النبى ﷺ إلا أن يكون سليمان بن داود « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وأخرج الحاكم عن ابن ميسرة أن هـذه الآية مكتوبة فى التوراة بسبعمائه آية : ﴿ يسبح لله ما فى السموات ومافى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ أول سورة الجمعة .

ويدخل فى هذا النوع ما أخرجه ابن أبى حاتم : عن محمد بن كعب القرظى قال : البرهان الذى أرى يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾ وقوله : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن .. ﴾ الآية وقوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ... ﴾ زاد غيره آية أخرى ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ قال : رأى آية من كتاب الله نهته مثلت له فى جدار الحائط والله أعلم .

فصل فى معرفة العالى والنازل من أسانيده

فى الحقيقه أن طلب علو الإسناد سنة ، وهو قرب إلى الله تعالى وقد قسمه أهل الحديث إلى خمسة أقسام وستأتى هنا .

الأول القرب من رسول الله ﷺ من حيث العدد بإسناد نطيف غير ضعف . وهو أفضل أنواع العلو وأجلها وأعلى ما يقع للشيوخ فى هـذا الزمان اسناد رجاله أربعة عشر رجلا : وإنما يقع ذلك فى قراءة ابن عامر فى رواية ابن ذكوان : ثم خمسة عشر ، ويقع ذلك فى قراءة عاصم من رواية حفص وقراءة يعقوب من رواية رويس .

الثانى من أقسام العلو عند المحدثين القرب إلى إمام من أئمة الحديث كالأعمش وهشيم وابن جريج والأوزعى ومالك ونظيره هنا القرب إلى إمام من الأئمة السبعة ،فأعلى ما يقع اليوم للشيوخ بالإسناد المتصل بالتلاوة إلى نافع اثنا عشر ، وإلى ابن عامر اثنا عشر

الثالث عند المحدثين العلو بالنسبة إلى رواية أحد الكتب الستة بأن يرى حديثا لو رواه من طريق كتاب من الستة وقع

أنزل مما لو رواه من غير طريقها ونظيره هنا العلو بالنسبة إلى بعض الكتب المشهورة فى القراءات كالتيسير والشاطبية ويقع فى هذا النوع الموافقات والإبدال والمساوات المصافحات .

فالموافات أن تجتمع طريقه مع أحد أصحاب الكتب فى شيخه وقد يكون مع علو على ما رواه من طريقه : وقد لا يكون : مثاله قراءة ابن كثير رواية البزى طريق ابن بنان عن أبى ربيعة عنه يرويها ابن الجزرى من كتاب المقنع لأبى منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون وكتاب المصباح لأبى الكرم الشهرزورى : وقرأ بها كل المذكور بن على عبدالسيد بن عتاب. فروايته لها من أحد الطريقين : تسمى موافقة للاخر ، باصطلاح أهل الحديث والبدل أن يجتمع معه فى شيخ شيخه فصاعداً ، وقد يكون أيضاً بعلو ، وقد لا يكون، مثاله هنا قراءة أبى عمرو رواية الدورى طريق ابن مجاهد : عن أبى الزعراء عنه . رواة ابن الجزرى من كتاب التيسير قرأ بها الدانى على أبى القاسم عبد العزيز بن جعفر البغدادى وقرأ بها على أبى طاهر عن ابن مجاهد ، ومن المصباح قرأ بها أبو الكرم على أبى القاسم يحيى بن أحمد

السبى ، وقرأ بها على أبى الحسن الحامى وقرأ بها على أبى طاهر ، فروايته لها من طريق المصباح تسمى بدلا للدانى فى شيخ شيخه .

والمساواة أن يكون بين الراوى والنبى ﷺ أو الصحابى أو من دونه إلى شيخ أحد أصحاب الكتب كما بين احد اصحاب الكتب والنبى ﷺ أو الصحابى او من دونه على ما ذكره من العدد .

والمصافحة : ان يكون اكثر عدد منه بواحد . فكأنه لقى صاحب ذلك الكتاب وصافحه ، واخذ عنه : فمثاله قراءة نافع : رواها الشاطبى عن أبى عبد الله محمد بن على النفرى عن أبى عبد الله بن سلام الفرس . عن سليمان بن نجاح وغيره . عن أبى عمرو الدانى ، عن أبى الفتح فارس بن أحمد عن عبد الباقى ابن الحسن عن إبراهيم بن عمر المقرىء عن ابى الحسين بن بويان عن ابى بكر بن الأشعث عن ابى جعفر الربعى المعروف بأبى نشيط عن قالون عن نافع ، وروها ابن الجزرى عن ابى محمد بن البغدادى وغيره عن الصائغ عن الكامل بن فارس عن ابى اليمن الكندى عن ابى القاسم هبة الله بن أحمد الحريرى . عن أبى بكر

الخياط عن الفرضى ، وابن بويان . فهذه مساواة لابن الجزرى ـ لأن بينه وبين ابن بويان سبعة ، وهو العدد الذى بين الشاطبى وبينه وهى لمن أخذ عن ابن الجزرى مصافحة للشاطبى .

ومما يشبه هذا التقسيم الذى لأهل الحديث . تقسيم القراء أحوال الإسناد ، إلى قراءة ورواية وطريق ، ووجه ، فالخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والطرق عنه فهو قراءة ، وإن كان للراوى عنه فرواية أو لمن بعده فنازلا فطريق ، أو لا على هذه الصفة مما هو راجع إلى تخيير القارىء فيه فوجه .

الرابع من أقسام العلو : تقدم وفاة الشيخ عن قرينه الذى أخذ عن شيخه فالآخذ مثلا عن التاج بن مكتوم أعلى من الآخذ عن أبى المعالى ابن اللبان وعن ابن اللبان أعلى من البرهان الشامى وان اشتركوا فى الأخذ عن أبى حيان ، لتقدم وفاة الأول عن الثانى والثانى عن الثالث .

الخامس : العلو بموت الشيخ لا مع الثقات لأمر آخر أو شيخ آخر متى يكون . قال بعض المحدثين . يوصف الإسناد بالعلو إذا

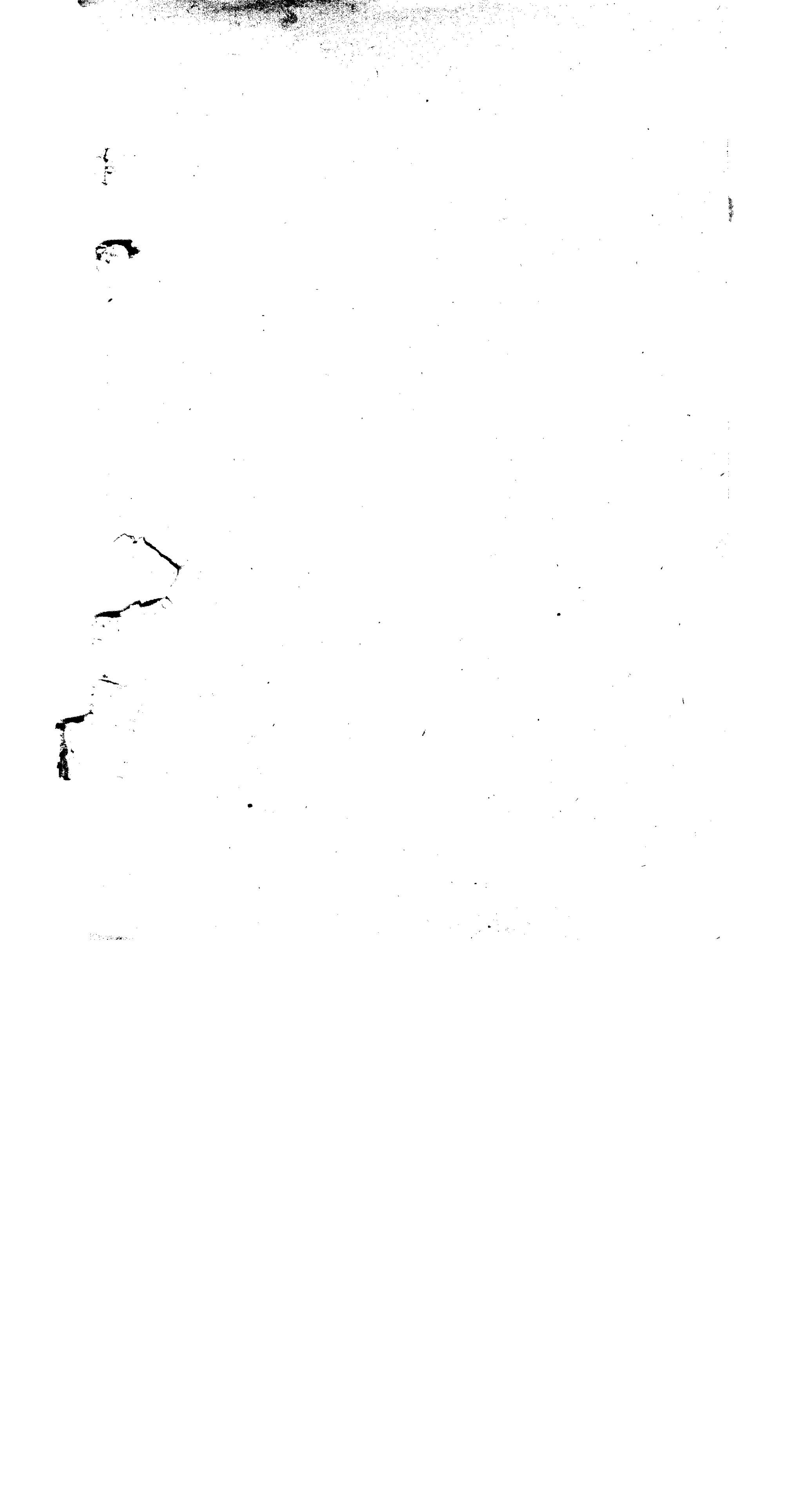
مضى عليه من موت الشيخ خمسون سنة وقال ابن منده ثلاثون .
فعلى هذا الآخذ عن أصحاب ابن الحزرى عال من سنة ثلاث وستين وثمانمائة لأن ابن الحزرى آخر من كان عالياً . ومضى عليه حينئذ من موته ثلاثون سنة فأكثر .

فهذا ، ما حرر من قواعد الحديث . وخرجت عليه قواعد القراءات ولم يسبق السيوطى إليه . وإذا عرفت العلو بأقسامه عرفت النزول ، فإنه ضده ، وحيث ذمّ النزول فهو ما لم ينجبر بكون رجاله أحفظ وأتقن أو أجل أو أشهر أو أورع أما إذا كان كذلك فليس بمذموم ولا مفضول . والله أعلم .

وهذا آخر باب فى مقرر السنة الأولى . . .

فهرست

الموضوع	الصفحة



رقم الإيداع بدار الكتب ٣٣٩٨ / ١٩٨٠
مطبعة الأمانة — ٣ جزيرة بدران شبرا مصر